Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأستاذ مرتضى المطهري

السيرة النبوية



ترجمة
جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة
بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة النبوية

تأليف
الأستاذ مرتضى المطهري

ترجمة
جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة
بيروت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية غاردن بالاس - ص.ب: ٢٤/٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في مفهوم السيرة

اَلحَمْـدُ للهِ رَبِّ العَـالَمِينَ ، بـارِىء الخَـلائِقِ أَجْمعَينَ ، والصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَحَبِيبه وَصَفيِّهِ وَحافِظِ سرِّهِ وَمُبَلِّغ رِسالاتِهِ ، سِيِّدِنا وَنَبِيِّنا وَمَوْلانـا أبي القاسِمَ مُحمَّـدٍ وَآلِهِ الـطَيِّبِّنَ الـطَّاهِـرِينَ المَعْصُـومِينَ . أَعـوُذُ بِـاللهِ مِنَ الشيَـطانِ الرَّجِيم ، ﴿بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْـوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللهَ وَالْيَـوْمَ الآخِـرَ وذَكَـرَ اللهَ كَثيراً﴾ .

ان احد منابع المعرفة التي ينبغي على كل مسلم ان يستقي منها لاستكمال صلاحه وتصحيح نظره سيرة رسول الله (ص) المباركة . وقبل الدخول في الموضوع ، لا بد من إيراد مقدمة قصيرة أذكركم بها ، وهي أن واحدة من نعم الله علينا ـ نحن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمين ، ومفخرة من مفاخرنا على اتباع الأديان الأخرى ، هي أن قدراً كبيراً من أقوال الرسول وأحاديثه المتواترة والموثوق بها ما زالت مصونة ومتداولة بيننا . وهذا ما لا يستطيع أن يدعيه أتباع الأديان الأخرى ، إذ ليس بإمكانهم أن يقولوا ان العبارة الفلانية ، مثلاً ، هي ما قاله موسى (ع) او عيسى (ع) فعلاً . صحيح أن بين أيدينا الكثير مما ينسب إليهما ، ولكن لا أحد يستطيع أن يقطع بذلك .

والأمر الآخر هو أن حياة نبينا واضحة ومدعومة بالاسناد الوثقي ، حتى انها في دقائقها وجزئياتها ليست خافية علينا ، ولا يعتورنا الشك في صحتها . وهذا ما لا يصدق على أي نبي آخر . اننا نعرف سنة ولادته ، بل يوم ولادته ، وفي اي يوم من أيام الإسبوع كان ذلك ، ونعرف فترة رضاعته والزمن الذي أمضاه في الصحراء ، وفترة ما قبل بلوغه ، وكذلك الأسفار التي قام بها الى خارج الجزيرة ، والأعمال التي قام بها قبل أن يبعث نبياً ، وفي أي سن تزوج ، وما رزق به من الأولاد ، والذين توفوا قبل ، وأعمارهم وتواريخ وفياتهم ، وأمثال ذلك ، حتى يصل الى مرحلة البعثة والنبوة ، وهي مرحلة أجلى وأوضح ؛ لأنها كانت حدثاً ضخماً سجلت بكل دقائقها : من أول من آمن به ، ومن كان الثاني ، ومن كان الثالث . حتى آمن فلان ، وما هي الأحاديث التي جرت بينه وبين الآخرين؟ . ما كانت أعماله ، وكيف كانت سيرته ؟ . . كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك واضح في أدق تفاصيله .

أما النبي عيسى (ع) وهو أقرب الأنبياء العظام وأصحاب الشرائع إلينا ، فإنه لولا تأييد القرآن له ولولا اعتقاد المسلمين بصدق ما جاء عنه في القرآن وانه نبي إلهي حقيقي ، لما كان بالإمكان معرفته وإثبات وجوده في العالم . إن المسيحيين انفسهم يعتقدون أن تاريخ ميلاد المسيح تاريخ موضوع ، وأن القول بأنه قد مرت الآن ١٩٧٥ سنة على ميلاده لا دليل عليه وليس في التاريخ ما يثبته ، بل قد يكون ميلاد المسيح قد حدث قبل ذلك بثلاثمئة سنة ، أو بعد ذلك بمئتين او ثلاثمئة سنة ولكننا إذا قلنا قد مضى على هجرة نبينا ١٣٩٥ سنة قمرية او ١٣٥٤ سنة شمسية ، فإن ذلك لا يعتوره أدنى شك هنالك بعض المسيحيين وأعني بهم المسيحيين الجغرافيين . لا المسيحيين المؤمنين - ينكرون أصلاً إن كان أحد في العالم باسم المسيح ، ويقولون : إن حكاية المسيح أسطورة مصطنعة . فهؤلاء يشكون حتى في وجود المسيح أصلاً . بديهي أن هذه المزاعم مردودة في نظرنا ، لأن القرآن أكد وجود عيسى (ع) ولمّا كنّا نؤمن بالقرآن فلا يمكن أن نشك بأن عيسى (ع) كان نبياً من أنبياء الله المرسلين .

إن مسائل من قبيل من هم حواريو عيسى ؟ ومتى ظهر الإنجيل بصورة كتاب ؟ وكم أنجيلاً هناك ؟ تعتبر مسائل غامضة عند المسيحيين . أما نحن المسلمين فإن مصادر أقوال نبينا ومصادر سيرته بينة لا يعتورها أي غموض أو إبهام ، ويمكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإعتماد عليها اعتماداً قطعياً ، لا ظنياً .

إن ما يلزمنا أن نستفيده من حياة نبينا هو ما في أحاديثه وما في سيرته كليهما . أي إن أقواله وأفعاله ينبغي أن تكون هادية لنا في مسيرتنا وسنداً لنا نعتمده ونتكىء عليه .

في البداية سوف أتكلم عن الأقوال النبوية الشريفة من ثم أتناول أفعاله (ص) بالدرس والتعليق .

أهم ما يتعلق بأقوال العظماء وأحاديثهم هو أنها تتضمن أموراً دقيقة مطلوب من الأفراد إدراكها ، وعلى الأخص أقوال نبينا الكريم التي قال عنها : « لَقَدْ أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ »[1] أي أن الله قد وهبني القدرة على أن أضع في مقولة قصيدة عالماً من العلوم . وقد أظهر النبي (ص) ذلك في أفعاله أيضاً .

كان الجميع يسمعون كلام الرسول الكريم ، ولكن .. هل كان الجميع قادري على الوصول إلى اعماق كلامه كما ينبغي ؟ لا . . أبداً . ولعل خمسة وتسعين بالمئة من السامعين ، أو حتى أكثر من ذلك ، لم يكونوا يبلغون مداها . ان النبي نفسه قد تنبأ بذلك فقال في الحديث المعروف الذي ذكرته الكتب المعتبرة ، مثل « الكافي » و « تحف العقول » ونقله الرواة الشيعة والسنة :

« نَضَّرَ الله امرءاً سَمِعَ مَقالَتي فَوَعاها ، وَبَلَّغها مَنْ لَمْ

(١) امالي الشيخ الطوسي ، ج ٢ ، ص ٩٨ و ٩٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يَسْمَعْها »[٢] .

ثم أضاف (ص) :

« فَرب حامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقيهٍ ، وَرُبَّ حَامِل فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ » .

ففي « رب » هذه إشارة إلى المستقبل الذي يكون وسيلة إيصال الحديث إليه هذا الشخص الذي قد يحمل قولاً عميق المغزى ولكنه نفسه ليس بمستوى العمق الذي ينطوي عليه ذلك الكلام . وقد تجد أناساً يحفظون تلك الأقوال الفقهية[٣] التي لا يستطيعون بأنفسهم بلوغ أغوارها ، فينقلونها إلى أناس آخرين أدق منهم فهماً وأعمق إدراكاً ، فيكون هؤلاء أقدر على أن يستخلصوا من تلك الأقوال معاني وأسراراً لم يكن يفهمها الناقل . ولهذا نلاحظ أن أقوال الرسول (ص) تكتشف فيها ـ كل حين ـ أعماق أخرى ، ولا أقول تزداد عمقاً .

لقد تحدث رسول الله (ص): عن مواضيع شتى ، كالأخلاق ، والفقه ، والزهد ، والمعارف ، والفلسفة . إن

---

(٢) سفينة البحار ، ج ١ ص ٣٩٢ .

(٣) الفقه هو الفهم العميق . إلا أن المقصود هنا هو العبارة ذات المعنى العميق . والفرق بين التفقه والفهم ، هو أن الفهم مطلق معرفة الشيء ، ولكن التفقه هو الفهم العميق . وعندما يطلق التفقه على الكلام يكون المقصود هو الكلام ذو المعنى العميق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ العلوم الإسلامية يكشف بجلاء أن المفسرين الذين جاءوا في أدوار متأخرة كانوا أقدر فعلاً على التوصل إلى المعاني العميقة في أحاديث الرسول (ص) . إن علماء القرن الأول والثاني لم يبلغوا مبلغ علماء القرن الثالث في الوصول إلى أعماق أحاديثه (ص) وعلماء القرن الثالث كانوا أقل وصولاً من علماء القرن الرابع ، وهكذا . . وها هنا موطن إعجاز الرسول (ص) .

بديهي - كما تعلمون - أن أوصياء النبي الكريم الأئمة الأطهار (ع) يختلف حالهم ، وكلامهم من كلام الرسول (ص) . . وإنما ينسحب قولنا على الأفراد العاديين لا على الأئمة المعصومين .

فإذا أخذنا فقهنا كمثال ، نرى أن الشيخ مرتضى الأنصاري - الذي جاء متأخراً بعد الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والشيخ الصدوق بتسعمائة سنة - أقدر منهم على شرح أقوال الرسول (ص) وتفسيرها .

فهل يعني هذا أن الشيخ الأنصاري كان أنبغ من الشيخ الطوسي؟

كلّا بل ان علم زمانه كان أوسع من علم زمان الشيخ الطوسي . فبتقدم العلوم يمكن الوصول إلى أعماق ابعد في الأحاديث الشريفة . كذلك الأمر سيكون في المستقبل . ففي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرن أو القرنين المقبلين قد يظهر أشخاص يستطيعون شرح أقوال الرسول خيراً مما شرحها الشيخ الأنصاري بالنظر لتمكنهم من الغوص أعمق في اسرارها ومعانيها .

وكما أن لكلام الرسول معنى واضحاً ومعاني وأسراراً أعمق كذلك أفعاله لها معانيها التي يجب التعمق فيها .

يقول القرآن الكريم :

﴿لَقَدْ كَانَ لَهُمْ فِي رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٤) .

وليعلم أن وجود الرسول كله مصدر إشعاع ينبغي أن نستضيء به ونستفيد منه ، إذ لا يصح الإكتفاء بجمع أقواله وأحاديثه فتكون حالنا حال رواة لا يدركون شيئاً ، ولا يكفي أن نذكر تاريخ حياة الرسول (ص) ونقول : إنه فعل كذا في المكان الفلاني ، وكذا في المكان الفلاني . . بل المهم تفسير ذلك العمل وتوجيهه . لماذا فعل النبي كذا في المحل الفلاني ؟ ما الذي كان يرمي إليه من قوله في الأمر الفلاني ؟ . .

إذن ، مثلما أن هناك حاجة للتعمق في أقوال النبي وتفسيرها ، هنالك ـ أيضاً ـ حاجة للتعمق في أفعال النبي وتفسيرها .

---

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يسعنا هنا إلا إبداء الأسف ؛ لكوننا ـ ونحن أمة خاتم الأنبياء (ص) ـ لا يستطيع أحدنا أن يذكر أربعة أحاديث أو خمسة من الاحاديث الشريفة، حتى بنصها دون شرحها وتفسيرها ، ولا نحن قادرون أيضاً على ذكر بضع حوادث من سيرة النبي الكريم .

إن أحد كتاب إيران المعروفين ، والذي لم يكن في أوائل أمره يدين بأي دين ، ولكنه ـ على أثر قراءته لبعض كتبي التي نشرتها ـ اتصل بي وأظهر بعض الميل نحو أفكاري ، قال لي يوماً : إنه يقوم بترجمة كتاب في حكمة الأديان ، أي الحكمة الموجودة في كل دين من الأديان ، وإن في الكتاب أقوالاً كثيرة عن شخصيات جميع الأديان ، ولكنه عند ما يصل إلى النبي الكريم لا يذكر سوى بضع كلمات قصار . ولما كانت ترجمته ترجمة حرة، فقد ارتأى أن يزيد من تلك الكلمات . وقال : إنه قرر أن يزيد مئة آية من القرآن ، ومئة حديث عن رسول الله (ص) ومئة كلمة من كلمات الإمام علي بن ابي طالب (ع) ، مستعيناً بترجمة القرآن وكتاب نهج البلاغة . ولكنه فيما يتعلق بالأحاديث الشريفة لم يعثر على ترجمة فارسية ، فطلب مني أن أختار مئة حديث شريف وأترجمها له ، لكي يصوغها هو بحسب أسلوبه ويدرجها في الكتاب . فاخترت ـ كما أراد ـ مئة حديث شريف وترجمتها وقدمتها إليه ، فأدرجها في ترجمته لكتاب « حكمة الأديان » . والتقيت به بعد ذلك بزمن وسألني : أحقاً كانت تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأقوال مما قاله نبينا ؟ والله ما كنت أدري ذلك ؟ مع العلم أن هذا الرجل من كبار أدبائنا ، وممن له وزنه في المحافل الأدبية الخارجية ، وعندما يدور الكلام حول أدباء من الدرجة الأولى فلا بد أن يكون هو من بينهم . أنه كان ، حسب قوله ، من السادة الذين ينتمون الى رسول الله (ص) نسباً وانـه قضى حياتـه بين الكتب ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى علمه أن لنبينا أقوالاً مثل تلك . وأردف قـائلاً : انني الآن أرى أن أقـوال نبي الاسلام تفضل على أقوال الأنبيـاء الآخرين، وهي اعمق كثيـراً وأغنى بالمعاني .

فلماذا نكون ـ نحن المسلمين ـ مقصرين إلى هذا الحد ، بحيث أن أحد أدبائنا ـ وهو مقصر أيضاً بالطبع ـ لا يدري ان لنبينا أقوالاً حكيمة !

خطر لي قبل سنوات أن أصنع كتاباً عن سيرة نبينا الكريم بهذا الأسلوب الذي سأصفه ، فجمعت الكثير من الملاحظات والمذكرات . ولكني كلما توغلت أكثر وجدتني أخـوض بحراً أعمق وأعمق . إلا أنني لم أترك الأمر . على الرغم من إدراكي بأني لا أستطيع أن ازعم أنني قادر على كتابة السيرة النبوية . ولكني تمسكت بالقول المأثور : مالا يدرك جله لا يترك كله . وقلت : سأكتب في ذلك وليأتي بعدي الآخرون ليكتبوا أفضل وأكمل . فكلما تعمق الإنسان في سيرة الرسول يجدها ما تزال

أعمق . كما هي الحال مع أقواله . إن أفعاله من الدقة بحيث يمكن وضع القوانين على هدي تفاصيلها . إن عملاً بسيطاً من أعماله إنما هو مصباح أو شعلة من نوركاشف ينير الطريق أمام المرء لمسافات بعيدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة في اللغة

ما لم نعرف معنى السيرة في اللغة لن يكون بإمكاننا تفسير السيرة النبوية . والسيرة مشتقّة من « السير » والحركة والمشي . ان اختيار لفظه « السيـرة » التي اختارهـا المسلمون في صـدر الإسلام ربما في القرن الثاني الهجري ـ كان اختياراً موفقاً . إلا أن المؤرخين لم يستطيعوا القيام بما ينبغي على خير وجه فلعل أقدم السير هي تلك التي كتبها ابن إسحق ، ثم جاء بعده ابن هشام وأخرجها في كتاب . يقال : إن ابن إسحق كان من الشيعة الذين عاشوا في منتصف القرن الثاني .

قلنـا : إن « السيـر » يعني « المشي » و « السيـرة » تعني « المِشْيَة » التي هي على وزن « فِعْلَة » وهذه تدل في العربيـة على النـوع ، كقـولـك « جَلْسَـة » التي تعني « الجلوس » و

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« جِلْسَة » وتعني نوع الجلوس ونمطه . فهنا اختلاف دقيق ، فالسير يعني المشي ، والسيرة تعني طريقة المشي أو السلوك . والمهم هو معرفة سلوك النبي وسيرته ، إلا أن ما كتب في ذلك حتى الآن لا يدور حول السيرة . إن ما بين أيدينا من كتب السيرة إن هي إلا كتب السير، لا السيرة، إنها عن مسيرة النبي لا سيرته وسلوكه وطريقته الحياتية .

وهذه مسألة مهمة جداً ، فكيف ؟ خذ الشعر مثلاً اننا نقول : رودكي شاعر ، ونقول : سنائي شاعر . وكذلك مولوي وفردوسي وحافظ كلهم شعراء فهؤلاء جميعاً شعراء في نظر من لا يعرف خصائص الشعر . ولكن العارف بضروب الشعر ومميزاته وخصائصه ، يعلم أن ألوان الشعر متنوعة ، فثمة شعر على الأسلوب الهندي ، وآخرعلى الأسلوب الخراساني ، وثالث على الأسلوب الصوفي العرفاني . وان لمعرفة ما لكل اسلوب من خصائص ومميزات أهمية كبيرة في معرفة الشعر . فمعرفة اسلوب الشعر غير معرفة أغراضه ، مثلاً . فالمرء لا يستطيع معرفة اسلوب الشعر إلا إذا عرف مختلف ضروبه ومذاهبه . وهذا يصح في النثر أيضاً .

خذ الفن مثلاً آخر . فأنت إذا أتيت شخصاً لا علم له بالفن تستطيع أن تصنف له الفنون على أن فيها فن العمارة ، وفن التزيين بالقاشاني ، وفن كتابة الكتائب . . . الخ . ولكن عندما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتحدث إليك عن الفنون متضلع فيها تجد أن في كل فرع منها أساليب وطرزاً ومذاهب شتى . لقد ترجم إلى الفارسية مؤخراً كتاب ألماني عن الفنون الإسلامية ، وهو كتاب جيد . . جاء في هذا الكتاب أن أسلوب الفن الإسلامي أسلوب خاص به ، فالحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي خلقت للفنون الإسلامية أسلوبها وطرازها الخاص ، ولكن من الطبيعي أن يكون كل اسلوب وطراز في فترة معينة قد تأثر بفنون الحضارات الأخرى ، إلا أن ذلك لا يغطي خصائص الفنون الإسلامية ذات الأساليب المستقلة المتميزة .

وعلى صعيد الفكر ، نجد أن الإنسان العادي ينظر إلى أرسطو على أنه عالم وفيلسوف ومفكر ، وكذلك هي نظرته الى البيروني وابن سينا وأفلاطون وفرانسيس بيكن واستيوارت مل وديكارت وهيگل وغيرهم . وإذا أخذنا أناساً آخرين ، فالشيخ الصدوق عالم ، والشيخ الكليني عالم ، وإخوان لصفا مجموعة من العلماء الشيعة ، والخواجة نصير الدين عالم . . كل هؤلاء علماء . . إلا أن المطلع عليهم يعرف أن أسلوب هؤلاء العلماء ومنحاهم العلمي يختلف عند بعضهم عن بعضهم الآخر اختلاف السماء عن الأرض . .

فهذا عالم يتبع الأسلوب الإستدلالي القياسي ، أي إنه يتبع في جميع المسائل المنطق الأرسطوي ، سواء أتناول الطب في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحثه ، أم تناول الفقه ، أم الأدب ، أم النحو والصرف . هذا هو طراز تفكيره .

وهناك عالم آخر يتبع الأسلوب التجريبي ، كأكثر العلماء المحدثين . يقولون : إن اختلاف طريقة البيروني عن طريقة ابن سينا هو أن طريقة هذا الأخير تستند في معظمها إلى منطق أرسطو ، أما البيروني فكان أكثر ما يعتمد الأسلوب التجريبي ، وكان كلاهما من نوابع عصرهما ، أحدهما عقلي الأسلوب والآخر نقلي الأسلوب .

وثمة آخرون لا يؤمنون بالأسلوب العقلي مطلقاً ، وكل اعتمادهم على المنقولات فحسب ولا يلتفتون الى ما عداها . فالمرحوم المجلسي ، مثلاً ، حتى إذا شاء أن يكتب في الطب ، فإنه سوف يكتب طباً مستنداً إلى المنقولات ، أو إذا أراد أن يكتب في الطوالع والسعد والنحس ، فإنه كذلك لا يستند إلا إلى العلوم النقلية .

على كل حال ، فمن المعلوم أن الأساليب تتنوع والأنماط تختلف فمنها ما هو نقلي ، وآخر حسّي ، وثالث استدلالي ، ورابع ديالكتيكي ـ كما يقول أبناء هذا الزمن ـ أي أنه يرى الأشياء جارية متحركة ، وغيره يلتزم الأسلوب الإستاتيكي ، أي إنه لا يرى لنظام العالم حركة ، إلى ما هنالك من انواع الأساليب والإتجاهات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في السلوك ايضاً أساليب شتى ، إذ أن علم السيـرة يعني العلم بأنماط السلوك . فسلاطين العالم ـ على الرغم مما بينهم من اختلافات ـ لهم طبع وسيرة خاصة بهم ، وللفـلاسفة نمط سلوك خـاص بهم ، وللمرتـاضين أسلوبهم الخـاص أيضـاً . كذلك الأمر مع الأنبيـاء ، فلهم على العموم نمط من السلوك خاص بهم ، ولكنك لو تناولت كل واحد منهم بمفرده لرأيت أنه يتميز بنمط خاص به من السلوك . وهكذا هو نبينا الكريم .

هنا لا بد من أن أذكـر نقطة أخـرى . قلنا : إن في الفن أنماطاً متعددة ، كما في الشعر والفكر والعمل وغيرها . ويكون هذا ـ طبعاً ـ في الأشخاص الذين لهم اسلوبهم الخاص ، إذ أن هناك من لا أسلوب له ، ككثير من الشعراء الذين لم يتبلور لهم أسلوب معين يمتازون به ولا هم يعرفون معنى للتفرد بأسلوب ، كبعض الرسـامين (ولعـل التكعيبيين منهم) وكـذلـك معـظم الناس ، فإنهم ليس لهم أسلوب خاص ، ولا منطق معيّن ، فمرة تراهم يعتمدون العلوم النقليـة وأخرى يستنـدون إلى العقل ، وثالثة يؤمنون بالحسّ . . هؤلاء هم دون مستوى المنطق ، وهم لا يدخلون في نطاق حديثنا .

إن الغـالبية العـظمى من النـاس ليس لهـا نمط معين من السلوك في سيرتها ، فلو سئل أحدهم عن أسلوبه في الحياة ، وعن نمط سلوكه ، وما الطريقة التي يحل بها مشاكله الحياتية ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لما عثر عنده على جواب .. قلة من الناس لهم أسلوبهم الخاص في مسيرتهم الحياتية وسلوكهم ، أما الأكثرية فليس لهم ذلك .. يسود الهرج والمرج أعمالهم ، فهم من الهمج الرعاع .

إن لجميع الناس سيراً ، ولكن ليس لجميعهم سيرة ، أي لا يتبعون في حياتهم منطقاً معيناً ومبادىء معينة تكون معياراً لسلوكهم .

فالسيرة ، كما قلنا ، عبارة عن السنة والأسلوب والنمط الذي يتبعه أصحاب المنطق والمبادىء في سيرتهم الحياتية .

فعندما نبحث في سيرة الرسول الأكرم ، إنما نريد معرفة الأسلوب أو النمط الذي كان يتبعه في أعماله اليومية لبلوغ أهدافه .. إن بحثنا لا يدور حول أهداف الرسول (ص) ، لأن هذه الأهداف معروفة لنا ، وإنما نحاول معرفة طراز عمله وأسلوبه في القيام بعمله ، فمثلاً كان الرسول (ص) يبلغ رسالته ، فكيف كان يقوم بذلك ؟

وفي الوقت الذي كان النبي يبلغ رسالته ، كان يقود مجتمعه سياسياً أيضاً .. فعندما حل بالمدينة أسس مجتمعاً وحكومة وكان هو نفسه زعيم المجتمع وقائده . فكيف كان أسلوبه في قيادة المجتمع وإدارته ؟

لقد كان النبي في الوقت نفسه قاضياً ـ أيضاً ـ يقضي بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناس ، فكيف كانت طريقته في القضاء ؟

كان النبي كسائر الناس رب عـائلة ويحيا حيـاة عائليـة ، وكانت له زوجات عديدات ، وله أولاد ، فكيف كانت حياتـه الزوجية ، وكيف كان يعامل زوجاته وابناءه ؟

كيف كان يتعامل مع أصحابه وأتباعه ؟

كان للنبي (ص) أعداء ألداء ، فكيف كان تعامله مع أعدائه وأسلوبه في مقابلتهم ؟

وكثيـر غير ذلـك من جوانب حيـاة الرسـول وطريقتـه في معالجتها مما ينبغي أن يوضح .

مثلاً . . يعتمد بعض السياسيين والقادة الإجتماعيين على استعمـال القوة ، ولا شيء غيـر ذلـك : أي أن أسلوبهم هـو أسلوب التوسل بالقوة . لأنهم لا يؤمنـون بغير القـوة . . إنهم يعتقدون أن عقداً من القرن أفضل من ذيل بطول ذراعين . هذه السياسة هي التي تتبناها الآن أمريكا ، فهي ترى أن المشاكل لا تحلّ إلا عن طريق القوة .

وهنـاك آخرون يسلكـون سبيل التحـايـل والمخـادعـة ، كالسياسة التي يتبعها الإنكليز ، وهي سياسة معاوية ويزيد . . أهداف هذين كانت متشابهة ، وهما أشقى الأشقيـاء ، إلا أن أسلوب معاوية يختلف عن أسلوب يزيد . . أسلوب يزيد كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسلوب اليوم ، أما معاوية فكان اكثر مـا يعتمد على الخـديعة والحيلة والنفاق والمكر . وقد تجد شخصاً آخر طريقته أقـرب إلى الأخلاق ، لا التظاهر بها على طـريقة معـاوية . وهـا هنا الإختلاف بين سياسة علي (ع) وسياسة معاوية . لقد كان أكثر الناس يومذاك يرجحون سياسة معاوية . ويقولون : إن السياسة هي هذه التي يسير عليها معاوية . وما زالت هذه الفكرة ـ أي ان السياسة هي المخادعة والتحايل ـ سائدة بيننـا اليوم ، مـع أن السياسة تعني الإدارة ، والسائس يعني المدير .

إننا نصف أئمتنا بأنهم ساسة العباد ،(٥) أي الذين يديرون شؤون الناس . ولكن هذه اللفظة غيرت لبوسها شيئاً فشيئاً حتى راحت تعني في الإصطلاح ـ المكر والمخادعة . كانوا يأتون إلى علي (ع) ويقولون له : إنك لا تعمل وفق السياسة التي يتبعها معـاوية لكي يتحسن وضعـك . . عليك أن تعمـل ما يجعلك متقدماً مهما تكن النتيجة بل إن بعضهم ظن أن الإمام يجهل تلك السيـاسة ، وان معـاويـة داهيـة وذكي ، وليس لعلي من تلك المواهب شيء .

ولكن الإمام (ع) قال : « وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بأدْهَى مِنّي ، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ ، وَلَوْلا كَراهِيَـةُ الغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أدهى النّـاسِ ، وَلكنْ كُلُّ غُدرَةٍ فُجَرَة ، وكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَة . وَلِكُلِّ غادِرٍ لِواء يُعْرف

(٥) زيارة (الجامعة الكبيرة) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بِـهِ يَوْمَ القِيـامَة . وَاللهِ مـا أُسْتَغْفَـلُ بِـالمَكِيـدَة ، وَلاَ أُسْتَغْمـزُ بالشَّدِيدَةِ »(٦) .

فكيف تريدونني أن استعمـل في السياسـة الغدر والحيلة والخداع والفسق والفجور ؟ ! وهي ما تبلغ حد الكفر بحيث أن كل واحد من هؤلاء يحشر يوم القيامة حاملاً لواء غدره وفجوره . لن ألجأ إلى الغدر في حياتي ابداً .

وهنـاك أسلوب الضعف والتمـاوت ، أسلوب الـلا أدريـة والتحامق . إنه اسلوب من الأسـاليب . وهناك أنـاس يسيرون أمورهم طبق أسلوب قتل الوقت ، وهم يعتمدون على الأسلوب اعتماداً كبيراً . وهناك آخرون يتسم أسلوبهم بالحسم والبتّ ، وآخـرون يغلب على أسلوبهم بعـد النـظر . . بعض فرديوا الاتجاه ، أي انهم يقررون ويصممـون بأنفسهم، بينمـا هناك آخرون لا يستطيعون أن يتخذوا قراراً بأنفسهم ، فحتى لو كان كل شيء واضحاً أمامهم ، فهم غير مستعدين لاتخاذ قرار حاسم وحدهم .

وهناك مورد الغرابة في سيرة الرسول الكريم . فهذا النبي - وهو في مقام النبوة وفي مركز بين أتباع يقولون لـه : مر فنلقي بأنفسنا في البحر - لا يريد ان يكون اسلوبه فردي الطراز ، فيتخذ

---

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قراراته منفرداً ؛ وذلك لأن أقل ما في هذا الأسلوب من ضرر هو أنه لا يعترف لأصحابه بشخصيته ، وكأنه يقول لهم : إنكم لا رأي لكم ولا عقل ، وما أنتم إلا أدوات تنفذ ما آمرها به . وهذا بالطبع يستتبع أن يقوم كل امرىء غداً بمثل ذلك محتجاً بأن القائد هو الذي يأمر وعلى الأتباع ان ينفذوا كآلات لا إرادة لها ولا رأي .

إلا أن النبي في مقام النبوة لا يفعل شيئاً من ذلك . . تحدث غزوة بدر فيؤلف مجلساً للشورى ، وتقع حرب أحد فيؤلف مجلساً للشورى .

يسأل أصحابه : لقد إقتربوا من المدينة ، فما الرأي عندكم ؟ أترون أن نخرج الى ظاهر المدينة ونحاربهم هناك ، أم نمكث في الداخل ونحكّم مواضعنا ؟ فقد يحاصروننا بعض الوقت ، فيفشلون ، وينكسرون ، ويرجعون من حيث أتوا . . كان أكثر كبار السن يرون البقاء في المدينة ، أما الشبان ـ الذين كانت دماؤهم تفور حماسة ـ فيقولون : أنظلُّ في المدينة محاصرين ؟ كلا . فلنخرج ونحاربهم حيثما هم .

يقول التاريخ : إن الرسول (ص) نفسه كان مع الذين يرون البقاء في المدينة ، وقال : إذا بقينا في المدينة نكون أكثر توفيقاً . كما كان يقول كبار المسلمين . ولكن أكثرية أصحاب النبي كانوا من الشبان ، الذين قالوا : يا رسول الله سنخرج إلى

سفح أحد ونحاربهم هناك . . وانقض المجلس .

ثم ما لبث النبي أن خرج اليهم لابساً لأمة حربه . .

جاء إليه الذين ارتأوا الخروج وقالوا : يا رسول الله ، إنك سألتنا رأينا فأجبناك ، ولكننا نتبعك حيث تشاء ، فإن رأيت الخير في ألّا نخرج إليهم ، فإننا لا نخرج ولسوف نبقى في المدينة . فقال النبي : إذا ما لبس الرسول لأمة حربه وخرج ، فليس صحيحاً أن يعود فيخلعها . ما دمتم قد رأيتم الخروج فلنخرج .

المقصود هو الإلتفات إلى انواع الأساليب وطرق التعامل مع الحوادث المختلفة ، وما هذا الذي ذكرته سوى الموجز لما هناك من طرق وأساليب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة والموقع الطبقي

قبل الدخول في شرح كل جانب من جـوانب سيرة النبي الكـريم ، لا بـد من أن ننـوه بقضيـة تعني الـذين لهم إلمـام بالمنطق ، وهي أن جميع الناس يفكرون ، ولكنهـم لا يفكرون جميعاً تفكيراً منطقياً . . التفكير المنطقي يعني أن الإنسان يتبع في تفكيره مجموعة من المقاييس التي يطلق عليها في علم المنطق اسم المخارج ، فتكون هي الأساس الذي يبني عليه تفكيره . . وقليلون أولئك الذين يبنون تفكيرهم على هذه الأسس المنطقية بحيث تنطبق على تلك المعايير . وهذا يصح أيضاً في السيرة الحياتية ، حيث يندر العثور على من يقيم سلوكه على أسس من المعايير المعينة التي لا ينفك عنها أبداً . إن أكثر الناس لا يكون سلوكهم وفق أي منطق ، وكما أن تفكيرهم غير منطقي يسوده الهرج والمرج ، كذلك هو حال سلوكهم ومسيرتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة نقطة اخرى أشير إليها لئلا يظل بحثنا ناقصاً ، وإذا ورد ذكر بعض العلوم فسوف أحاول أن أوجز ذلك قدر الإمكان .

لقد جاء في الحكمة والفلسفة أن الحكمة قسمان : نظرية وعملية ويقولون إن الإلهيات والرياضيات والحساب والهندسة والموسيقى والطبيعيات والفيزياء وعلم الحيوان وعلم النبات وأمثالها تعتبر من قسم الحكمة النظرية . وفي مقابل ذلك يذكرون الأخلاق والسياسة والتدبير المنزلي وأمثالها على أنها من قسم الحكمة العملية .

أما في المنطق فلم يرد ذكر شيء من هذا ، ولكن يصح تطبيقه عليه ، أي إن المنطق ـ مثل الفلسفة ـ قسمان : المنطق النظري ، والمنطق العملي . أي إن المقاييس عند البشر قسمان : المعايير أو المقاييس النظرية ، وهي هذا المنطق المعروف . والمعايير العملية ، وهي التي تطلق عليها اسم « السيرة » .

سبق أن قلت : إن لبعض الناس منطقاً ، وبعضهم ليس له منطق . هنا يمكن أن يطرح سؤال ، ولعله قد لفت أنظار الشباب ، وهو : أيستطيع الإنسان في عمله أن يتبع منطقاً ثابتاً ومتيناً بحيث أنه لا يتخلى عنه مهما اختلفت الظروف الزمانية والظروف المكانية ؟

إن هذا هو ما نقوله عن النبي الكريم (ص) لأننا نعتقد أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت لرسول الله سيرة وسلوك ومنطق عملي ، وأن علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نتعرف على سيرته وعلى منطقه العملي لكي نستفيد من ذلك في أعمالنا . فهل يمكن للمرء أن يتمسك طوال عمره بمنطق ثابت يكون له أساساً مبدئياً أم أن ذلك غير ممكن ؟

إن الإنسان ـ بطبيعته ـ كائن تحت حكم الظروف المكانية والظروف الزمانية ، وعلى الأخص هو محكوم بمركزه الطبقي . فهو بخضوعه للظروف الإجتماعية والإقتصادية ، لا مندوحة له عن اتباع منطق معين . .

هذه مسألة مهمة مطروحة على بساط البحث في العالم المعاصر . ولقد أُقيمت الماركسية على هذا الأساس ، فالماركسية ، التي لا ترى للفكر والعقيدة والإيمان أصالة ما في قبال الظروف الإجتماعية والإقتصادية ، والطبقية خاصة ، تقول : إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر بطريقة واحدة ومنطق واحد في الظروف المختلفة . . إن من يسكن القصر له منطق ، ومن يسكن الكوخ له منطق آخر . . فالإنسان في القصر يختلف تفكيره عن تفكير الإنسان في الكوخ . . لهذا منطق مغاير لمنطق ذاك . إن الإنسان المحروم الذي كان يعاني من الظلم والجور والكبت دائماً ويتذوق ضروب العذاب والمحروميات ، تخلق له حياته وطريقة معيشته نوعاً معيناً من التفكير والإتجاه الفكري . إن هذا الإنسان هو الذي ينادي بالعدالة ويطالب بالمساواة ويريد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرية . . . وهذا في الحقيقة هو ما يقتضيه واقعه الذي يعيش فيه .

هذا الإنسان نفسه إذا تغيرت ظروفه . . هذا الإنسان الذي كان يعيش على تراب الكوخ وانتقل ليتمتع برفاه القصور ، وتغيرت ظروفه الخارجية وتبدلت ، فإن تفكيره يتغير ويتبدل أيضاً فيأخذ بانتقاد الذين كانوا يتحدثون عن الظلم والإضطهاد . . الخ . . . ويتهمهم بالكذب .

إن مقتضيات المصلحة مختلفة الآن ، والمساواة أيضاً ليست مقولة صحيحة ، والحرية يجب أن تكبح بعض الشيء ، والعدالة يكون لها معنى آخر . . . إذن ، فمؤشرات فكر الإنسان مختلفة ، بحيث أن المغناطيس الذي يجذبها هو مصلحته الخاصة . فإذا كانت منافعه تنسجم مع منافع الطبقة المحرومة . تنحرف مؤشرات عقله نحو منافع المحرومين . ولكن عندما تغيرت منافعه باتجاه الطبقة المرفهة ، اتجهت عقارب تفكيره ، شاء أم أبى ، نحو الطبقة المرفهة .

إن ما كنا ندخله قديماً في باب المزاح والنوادر ، نراه اليوم وقد وضع له هؤلاء فلسفة ويقولون : إنه ليس مزاحاً ولا نوادر ، بل . . قضايا جادة . لقد كان من باب الهزل أن يقول أحد الطلبة قديماً : إنه يقتدي بمن يعطيه مالاً ، وصلاته صحيحة . أي إنه يقتدي في صلاته بمن يجزل له العطاء ولا تكون صلاته باطلة .

فيقال له : إنك بهذا تصلي من أجل المال ، فكيف تكون صلاتك صحيحة ؟ فيقول : إن من لا يدفع لي شيئاً أراه فاسقاً ، وعندئذ تكون صلاتي باطلة . . ولكنه ما إن يضع نقوداً في يدي فإن اعتقادي يتبدل ويصبح ذلك الشخص عادلاً في نظري ، فإذا صليت خلفه تكون صلاتي صحيحة ، فرأيي تابع لمن يدفع ، إذا أعطاني مالاً كان في رأيي عادلاً ، واذا لم يعطني مالاً كان في رأيي فاسقاً . وعليه فإن عليّ ألاّ أصلي خلف من لا يعطيني مالاً ، فإذا صليت خلفه تكون صلاتي باطلة .

هذه الحكاية كنا دائماً ننظر إليها على أنها مزحة أو نكتة . ولكننا الآن نرى أنها قد غدت إلى حد ما فلسفة تقول : إن عقارب عقل الإنسان مصنوعة بحيث إنها لا يمكن أن تتحرك إلا باتجاه مصالح الإنسان ومنافعه . إنه أسير الإقتصاد والتاريخ ، ولا مناص له من ذلك .

هذه هي أهم دعائم دعواهم ، ولكن كيف نستطيع أن نتأكد من صحة هذه الدعوى ؟ هذا ممكن بالعمل وبالتجربة . . علينا أن نخضع أفراد البشر للتجربة لكي نعرف إن كانت ضمائرهم - حقاً - ألعوبة بأيدي مصالحهم ، وإن كانت بنيتهم قد صيغت - فعلاً - على هذه الشاكلة . وأن ليس في هذا أي إهانة للإنسان ، وأن نتيجة ذلك لا تكون ضد الإنسان مئة بالمئة .

طبيعي أن من لا إيمان له ولا منطق ، هكذا يكون . ولكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يمكن القول بأن الإنسان هو هكذا بالجبر والإكراه ، بدليل وجود مئات النماذج من أفراد البشر هم على النقيض من هذه الفكرة .

[الدكتور] علي الوردي من الكتاب العراقيين وأحد أساتذة جامعة بغداد ، له عدد من الكتب التي ترجم بعضها إلى اللغة الفارسية . إنه من الشيعة . ولكنه في الوقت نفسه يميل إلى الماركسية في كتاباته . له ميول شيعية وميول ماركسية . وبسبب تشيعه هذا فإنه لا يرى ما يمنعه من أن يدلي بأقوال ضد الماركسية . فيقول : إن علياً في حياته وسيرته يدحض مقولة ماركس في أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر تفكيراً واحداً إذا عاش في كوخ أو في قصر ، وأن عقارب فكره تميل حتماً نحو مصالحه الإجتماعية . . إن تاريخ حياة علي (ع) قد كشف عن أن الأمر ليس كذلك ، وذلك لأننا نرى علياً في وضعين مختلفين من الأوضاع الإجتماعية الطبقية دون أن يتبدل طراز تفكيره واتجاهه .

ففي أحد الوضعين يقترب من حدود الصفر نزولاً ، وفي الوضع الأخر يرتفع إلى حيث القمة التي ما بعدها قمة . فمرة نرى علياً عاملاً أو جندياً فقيراً بسيطاً ، يخرج في الصباح من داره إلى حيث يحفر قناة أو يغرس شجرة أو يزرع أرضاً ، أو حتى أن يعمل أجيراً ، فيكدح ويتعب لقاء أجر . . ثم ، بعد أن ينتشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلام ، وتزداد ثروة المسلمين ، وتنهال الغنائم عليهم ، نرى علياً نفسه على رأس الحكومة الإسلامية ، بغير أن يكون لهذا المقام الرفيع ولتلك الثروات الوافدة أي أثر في تغيير طراز تفكيره أو في سلوكه .

إننا لا ننكر أن سيل الثروة المتدفق على المسلمين قد ذهب بإيمان العشرات بل المئات من المسلمين . . إننا لا ننكر وجود حب الجاه في كثير من النفوس ، ولكننا ننكر أن يكون ذلك مبدأ أصيلاً كلياً .

من كان الزبير ؟ كان مسلماً مؤمناً . فما الذي أفسده ؟ الغنائم الوفيرة والثروة الضخمة ، فقد ملك ألف فرس وألف غلام وعدداً من الدور في الكوفة والمدينة . . ما الذي أفسد طلحة ؟ الثروة أيضاً . وآخرون كثيرون من أصحاب النبي قد أفسدهم الجاه ، أفسدتهم الخلافة ، أو الثروة .

ولكن لو كانت هذه قاعدة عامة وصحيحة لفسد (والعياذ بالله) جميع أصحاب رسول الله ، فما إن يتهيأ المركز المرموق أو تنهال الثروة بغير حساب ، حتى يتحرك الجميع باتجاه واحد . ولكننا نلاحظ في هذه المعمعة أعمدة شامخة ثابتة لم تستطع هذه التيارات أن تزحزحها عن مواضعها قيد أنملة . . إن هذه الأموال الطائلة الخارقة للمألوف ، فضلاً عن كونها لم تؤثر في علي (ع) أي أثر ، فإنها كذلك لم تستطع أن تهز أتباعه أيضاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل استطاع المال أن يغير شيئاً في سلمان الفارسي ؟ لقد ظل سلمان الحاكم على المدائن[٧] هو نفسه سلمان على عهد رسول الله (ص) ، على الرغم من جلوسه مجلساً كـان يقتعده أنوشيروان . وحيث كان يحكم خسروبـرويز ، يخـدمه آلاف العبيد وآلاف الجواري . وهنالك كان (يزدجرد) الذي زاد عدد المتمرغين عند أعتابه على الآلاف . . أما الآن فسلمان الفارسي الذي رباه الإسلام يجلس في المكان نفسه وليس عنده من متاع الدنيا ـ على طول فترة حكمه ـ سوى ما يمكن جمعه في خرج يستطيع أن يحمله على ظهره ويضرب في الأرض .

يقول علي الوردي : إن حياة علي تنقض نظرية ماركس . وأقول : إن حياة سلمان أيضاً تنقض نظرية ماركس . وحياة أبي ذر تنقض نظرية ماركس كذلك .

ألم يكن أبو ذر حياً حتى أواسط حكم عثمان ؟ ففي الوقت الذي كان الناس يأخذون من الخليفة مئة ألف دينار ومئة ألف درهم فيملأون بها جيوبهم ويشترون بهـا القطعـان من الأغنام والخيل وعشرات من الغلمان والجواري ، كان ابو ذر ومعه الأمر

---

(٧) المدائن كانت عاصمة إيران القديمة . لقد اقتضت سياسة الخليفة أن يرسل مسلماً لحكم تلك البلاد يكون من أبنائها ، لكيلا ينفروا بل ليروا أن أحد المسلمين من عنصرهم قد أرسل اليهم . ولذلـك بعث بسلمـان الحكم المدائن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بـالمعـروف والنهي عن المنكـر . لم يكن يملك غيـر الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ولقد سعى عثمـان جهده أن يقطع هذا اللسان الذي كـان أمضى فيه من الف سيف ، فلم يفلح ! فـأبعـده الى الشـام ، فلم يسكت ! فعـذبـه ، فلم يسكت ! .

حتى أنه أعطى غلاماً من غلمانه كيساً من المال ووعده أن يعتقه إن هو استطاع إقناع أبي ذر بقبوله . فجاء الغلام إلى أبي ذر وراح يتوسل بمختلف الأساليب والأقوال سعياً وراء إقناعه بقبول المال ، فلم ينجح .

سأله ابو ذر : لمن هذا المـال الذي تـريد أن تهبـه لي ؟ أوضح لي هذا أولاً . إذا كان الخليفة يريد أن يعطيني حصتي ، فكيف بحصص الآخرين ؟ أهو يعطيهم حقوقهم كما يريـد أن يعطيني حقي الآن ؟ فإذا كان قد سلب حقوق الآخرين فإن حقي بضمنها . فإذا كان يريد إعطائي حقي الآن فعليه أن يعطي حقوق الآخرين أيضاً . لماذا يعطيني حقي وحدي ؟

ولم يفلح الغلام في حمل أبي ذر على تقبل المال . وأخيراً توسل الغلام بالجانب الديني في أبي ذر ، وقال له : ألا تحب أن تـرى عبداً يعتق ؟ فقـال : بلى ، ليس أحب إلي من ذلـك ، وبودي أن أراك حراً طليقاً ، ولكني يؤسفني أن أقول لك : إنني بقبولي هذا المال ، تنال أنت حريتك ، وأقع أنا في قيد عبودية عثمان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول علي الوردي : إن حياة علي العملية قد نقضت هذه النظرية .

وأقول : ليست حياة علي هي وحدها التي نقضتها ، بل إن حياة محمد قد نقضتها قبل ذلك . فمن كان محمد في أول أيام البعثة ؟ ثم نتقدم قليلاً لنرى النبي في شعب أبي طالب ، ومن ثم نراه يوم وفاته . إنه في شعب أبي طالب مع رهط من صحبه محبوسين ، لا يصل إليهم طعام ، وليس لديهم إلا القليل من الماء ، وتعوزهم حاجات أخرى كثيرة تلح عليهم ضرورتها أحياناً إلحاحاً يحمل بعض المسلمين في الشعب ممن كانت لهم رابطة مع علي (ع) أن يتسللوا تحت غطاء الليل الداجي إلى اطراف البلد حيث كانوا يتبلغون بما يحصلون عليه من طعام لا يكاد يسد رمقهم . . هذا هو النبي يوم كان في شعب أبي طالب .

هذا النبي نفسه يصل إلى السنة العاشرة من الهجرة ، حيث تحسب له دول العالم حساباً ويستشعرون الخطر من وجوده ، فجزيرة العرب ليست وحدها التي تقع برمتها تحت سيطرته ونفوذه ، بل إن سياسيي العالم يتنبأون بانتشار تلك القوة ـ قريباً ـ الى خارج جزيرة العرب ووصولها إليهم . فالنبي بعد عشر سنوات من الهجرة ، والنبي في السنة العاشرة من البعثة ، هو هو لا يختلف في الحالين قيد شعرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحضر أعرابي من البادية ـ يوماً ـ للقاء النبي ، ولكنه عندما يراه يتلعثم رهبة من هيبة النبي ، فيستاء النبي لذلك ، فيأخذ الرجل بين ذراعيه ويحتضنه ويقول له : أيها الأخ ، مالذي يخيفك مني ، فأنا لست من تظن ، بل أنا ابن تلك المرأة التي تحلب العنزة بيديها ، وإني لك كالأخ ، فقل ما في قلبك . . !

فهل استطاعت تلك القدرة والمكانة والعزة أن تغير شيئاً من روح محمد؟ لا ، أبداً فمحمد وعلي مقامهما أرفع من هذا .

ولا بد من التعرف على غيرهما من المسلمين أمثال ابي ذر وعمار وأويس القرني . . ومئات آخرين . . . ولنتقدم في الزمن أكثر لنرى الشيخ الأنصاري وأمثاله ، ذلك الرجل الذي بلغ أعلى درجة دينية المرجع العام للشيعة ، نراه يوم وفاته لا يختلف ذرة عما كان عليه يوم كان طالب علم يغادر دزفول الى النجف الأشرف . وعندما يطّلعون على مسكنه يجدونه لا يختلف عن مسكن أفقر الناس حولَه .

يحاوره يوماً أحدهم قائلاً : ما أبرعك وأنت تصلك هذه الأموال الطائلة بغير أن تمد لها يداً . فيقول : وما البراعة في ذلك ؟ فيقال له : وهل ثمة ما هو أبرع من هذا ؟ فيرد الشيخ : حتى إذا قدرنا عملي فإنه لا يزيد على عمل الحمّارين في كاشان ، فهم يسافرون إلى اصفهان ويتبضعون ثم يعودون ، فهل سمعت أن أحدهم قد خان من أئتمنه على ماله ؟ فموضعي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يزيد على مواضع أولئك .

ولكننا نرى مقامه مقام المرجعية ، ومع ذلك فإن مقامه هذا لا يستطيع أن يسخّر روح هذا الإنسان العظيم لحظة واحدة .

إذن ، فجوابنا على سؤال : أيستطيع الإنسان في عمله أن يتمسك بمنطق واحد لا يتغير ؟ يكون بالإيجاب .

أما جوابنا على السؤال : كيف يتحقق ذلك ؟ فهو قولنا : عليكم أن تتعمقوا في دراسة أمثال هؤلاء الأشخاص . . لقد أخطأ ماركس ، إذ كانت دراساته ناقصة ، لأنه قصّر مطالعاته على أشخاص مثل مروان بن الحكم ، أو مثل عثمان ، أو مثل الزبير . ولكنه لم يقم دراساته على أشخاص أسوياء ، وإلا لما قال ما قال ، ولما جانب الصواب الى هذا الحد . فهناك في الدنيا - على عكس نظرية ماركس - أناس - والنبي (ص) على رأسهم - لهم سيرتهم ومنطقهم العملي ومعاييرهم التي لا يتنازلون عنها . . أي إن الظروف الإجتماعية والوضع الإقتصادي والموقع الطبقي ليست قادرة على حرفهم عن مبادئهم .

في المنطق النظري برهان وشعر . والبرهان أشبه بما يرد في الرياضيات لإثبات قضية من القضايا : فالطالب الذي يدرس الرياضيات . ويصل إلى قوانين المثلث ، يقال : له إن مجموع زوايا المثلث يساوي ١٨٠ درجة وإن من المحال أن تصبح ١٨١ درجة أو تصبح ١٧٩ درجة ، ثم يقيمون له الدليل والبرهان على

ذلك ، فيؤمن بصحة النظرية . فهل تتأتى للمعلم تلك القدرة على الإتيان ببرهـان يدل على أن مجمـوع زوايا المثلث ١٧٠ درجة اذا شاء ، او على انها تساوي ٢٠٠ درجة .

كـلا ، لأنه لا خيـار له في ذلـك . إن المـواقف العقليـة والنظرية التي يجب أن يتّبعها الإنسان ليست اختيارية فلو جيء بانشتاين لقيم البـرهان على مـا سبق لكان بـإمكان أي طـالب رياضيات في المتوسطة أن يدينه لافتراضه أمراً مستحيلاً ، والأمر المستحيل لا يتقبله العقل . إن ما لا يقبله العقل لا يمكن أن يفرض عليه حتى إذا كان الفارض من أعلم العلماء ، لأن القضية قضية دليل وبرهان .

والآن فلنعد إلى الشعر . إن كل ما يصوغه الشاعر على وفق هواه من تشبيه واستعارة وخيال يعتبر شعراً ، بغير ما حاجة إلى منطق ولا برهان . يقال للشـاعر : امـدح الشخص الفلاني ، فيمدحه . وإذا قيل له : ذمـه ، يذمـه . وهذا فـردوس يمدح السلطان محموداً يوماً مدحاً لا مزيد عليه ، وفي يوم آخر يهجوه بما لا مزيد عليه لأنه لم يجزل له العطاء . إنه الشعر والشاعر . . فمرة يقول هذا ومرة يقول ذاك . . إنني أقصـد بالشعـر ـ طبعاً المعنى المنطقي ، وليس كل نظم أوكلام منظوم . إنه التخيل الذي لا قياس له ولا ميزان .

فبعض يشبه البرهان في منطقـة العملي ، أي إنه صلب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثابت ، وإن المبادىء التي يسير بموجبها لا تستطيع سلطة على الأرض أن تأخذها منه ، فلا القوة ، ولا الطمع ولا الظروف الإجتماعية ولا الظروف الإقتصادية ولا المركز الطبقي قادرة على أن تنتزع منه تلك المبادىء . إن المبادىء الراسخة الثابتة ، كالمبادىء الرياضية والبرهانية ، ليست تأتي بحسب الرغبة والهوى، ولا هي ناشئة من العاطفة والإنفعال حتى تكون متغيرة . إن النبي (ص) وعلي (ع) والحسن والحسين (ع)و . . لهم مثل هذه المبادىء ، بل إن لأتباعهم مثل هذه المبادىء أيضاً . . كسلمان وعمار وأبي ذر والمقداد وغيرهم .

وثمة أناس آخرون مبادؤهم في الحياة أشبه بالمبادىء الفكرية عند الشاعر . اغدق عليه المال تجد أفكاره قد تبدلت ، أو عده بما يرغب فتتبدل آراؤه، وذلك لأنه ليس لأفكاره وآرائه مبادىء وأصول .

إن الموضوع الرئيسي في السيرة النبوية الذي يجب أن نبحث فيه ، هو أن الإسلام يرى أن الإنسان على درجة من قوة الفطرة والبنية بحيث أنه قادر ـ كما في المنطق النظري ـ على ان يتابع منطقاً حديدياً غير قابل للتغيير ، وإنه في المنطق العملي قادر على أن يصل إلى حيث لا تستطيع قوة أن تزعزعه ، « كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف » . لقد جاء في وصف المؤمن : إنه كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف . فما هي تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العواصف ؟ هي هذه المحروميات . . فالمحروميات قد تحرك الرجل عن مكانه . وهذا القرآن يقول :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فإن أصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأنَّ بِهِ وَإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةَ﴾(٨) .

نعم . . هناك فريق من الناس لا يواكب الإيمان بالله إلا ما دامت مصالحهم به مقضية ، فإن أصيبت بضرر انقلبوا راجعين .

للإمام علي (ع) كلمة في وصف الزهد ليس أجمع منها ولا أدق :

« الزُّهْدُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ القُرآنِ : ﴿لِكَيْ لا تَأْسُوا عَلى ما فاتَكُمْ ، وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾(٩)

فإذا بلغت تلك المرحلة التي إذا أخذ منك كل ما لك في الدنيا لاتحزن عليه ، وإذا أقبلت عليك الدنيا بكليتها لا تفرح لذلك ، أي إنك إذا ظللت أنت أنت سواء أدبرت عنك الدنيا بكليتها أم أقبلت عليك بكليتها ، عندئذ تكون زاهداً حقاً . فالزهد ـ إذن ـ ليس هذا التظاهر الجاف ، بل هو أمر يرتبط بروح

---

(٨) سورة الحج ، الآية ١١ .

(٩) نهج البلاغة ، الكلام ٤٣٩ .

الإنسان . إن الإمام علياً (ع) يصف الزهد بما لا يستطيع ماركس وأضرابه تصوره في الإنسان ، ويقولون : يستحيل أن يقدر انسان على ذلك الزهد الذي يصفه عليّ ، وأن يرتفع بشخصيته إلى ما فوق الطبقات الإنسانية وما فوق المنافع الفردية ، بينما هذا هو الأساس الذي يقوم عليه الإسلام . إن أصالة إنسان الإسلام تقوم على كونه يستطيع أن يكون زاهداً . لا ذلك الزهد الذي نتعارف عليه اليوم ، بل الزهد الذي وصفه الإمام علي (ع) . وذلك الزاهد الذي يكون مصداقاً للآية الكريمة . ﴿لِكَيْلا تَأْسَوا عَلَى ما فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ .

من هذا نستنتج أن من الممكن أن يكون للإنسان منطق ثابت يسير على وفقه ، على الرغم من كل الظروف الإجتماعية والإقتصادية والطبقية . هذه هي نظرة الإسلام ، وسيرة الذين تربوا على التربية الإسلامية تؤيد إمكان وصول البشر إلى هذه المرحلة .

في المنطق العملي ـ مثل المنطق النظري ـ أساليب وطرائف متعددة ، أي إن الحلول التي يعثر عليها الناس لمشاكلهم تكون مختلفة ، فلقد سبق أن قلنا : إن بعضهم يتوسل بأسلوب القوة وهي منطقه ، وبعضهم منطقه المحبة وحسن الأخلاق والعطف ، وآخر منطقه بعد النظر والتبصر ، والرابع منطقه السرعة وعدم التمهل ، وغير أولئك من يستخدم منطق المخادعة ، وهناك من يكون منطقه التماوت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى الرغم من أن البحث عملي ، فلا بد لي من الإشارة إلى نقطة معينة . في المنطق النظري يتبع بعضهم منطق القياس ، وبعض آخر يتبع منطق التجربة والحس ، وغيرهما يتبع منطق الإحصاء والأرقام ، وكل جماعة تخطّىء الجماعة الأخرى .

في عصرنا الحاضر اكتشفوا « علم الأساليب » Methodology وصار هناك علماء في هذا العلم . يقول هؤلاء العلماء : إن الذين يتبعون أسلوب القياس وينكرون الأساليب الأخرى مخطئون . فالمهم هو أن يعرف الإنسان موضع كل أسلوب . . أن يعرف متى يستخدم أسلوب القياس ومتى يستخدم الأسلوب التجريبي ، وكذلك الأساليب الأخرى .

في المنطق العملي لا يختلف الأمر عن ذاك .

في المنطق النظري ألغي العديد من الأساليب ، مثل الأسلوب اللاعلمي ، وذلك بأن يعتمد الإنسان في القضايا العلمية على أقوال الآخرين . . هذا الأسلوب قد انتهى امره . إن مقولة أي عالم لا تكون وحدها حجة قاطعة أبداً .

وهكذا الأمر في المنطق العملي فقد ألغي فيه الكثير من الأساليب ،

والإسلام نسخها أيضاً . . مثلاً : هل كان النبي (ص) يعتمد في أعماله على « السعد والنحس » من الأيام ؟ هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضوع للبحث . تلك هي سيرة محمد فانظروا فيها من أولها إلى آخرها ، واقرؤوا جميع الكتب التي كتبها الشيعة والسنة في تاريخ حياة النبي لتستنتجوا منها إن كان النبي (ص) يعتبر أيام السعد والنحس في أعماله . هل كان إذا أراد السفر يقول ، مثلاً ، اليوم يوم الإثنين وليس من السعد السفر فيه ؟ أو أن اليوم هو الثالث عشر من عيد النوروز ، فكل من يسافر في هذا اليوم تكسر رقبته ، لا من مكان واحد ، بل من ثلاثة عشر مكاناً ؟ !

هل هناك شيء من هذا الكلام في سيرة الإمام علي (ع) أو في سيرة الأئمة الأطهار ؟

إننا لن نجد بالطبع شيئاً من هذا في سيرة النبي الكريم (ص) ولا في سيرة الأئمة الأطهار (ع) فهم فضلاً عن كونهم لم يتبعوا هذه الأمور في حياتهم العملية ، فإنهم عملوا العكس تماماً . جاء في نهج البلاغة أنه عندما صمم الإمام علي (ع) على الخروج لحرب الخوارج ، جاءه أشعث بن قيس ـ وكان يومئذ من أصحاب علي ـ مسرعاً ورجا علياً أن يصبر قليلاً ريثما يصل أحد أقربائه المنجمين لأنه يريد أن يسر إليه بكلام . فطلب منه الإمام إحضاره ، فجاء الرجل وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا منجم ومتخصص بمعرفة السعد والنحس من الأيام ، ولقد رأيت في حساباتي أنك إذا تحركت الآن وخرجت إلى الحرب فسوف تصاب بالهزيمة ولسوف تقتل أنت وأكثر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أتباعك . فقال الإمام : إن من يصدقك يكون قد كذب رسول الله . . ثم التفت إلى أصحابه قال : سيروا على اسم الله فساروا من ساعتهم ، ولم يكونوا أعظم نصراً في أية حرب أخرى في الواقع من حربهم هذه [١٠] .

ثمة حديث في « وسائل الشيعة » يبين أن عبد الملك بن أعين (عبد الملك ابن أخ أعين كان من كبار الرواة وعالماً ، ولكنه كان مولعاً بكتب التنجيم يقرؤها ويتبع تعليماتها . ثم بدأ يدرك أنه قد أوجد لنفسه مصيبة كبرى ، إذ كان يقرأ في كتبه إذا خرج من الدار حصل كذا وكذا ، وفي يوم يقرأ إذا ظهر النجم الفلاني من الأمام حصل كذا وكذا . . فأحس أنه أصبح عبداً مقيداً) جاء يوماً إلى الإمام جعفر الصادق (ع) وقال : يا بن رسول الله ، لقد ابتليت بالتنجيم الأحكامي [١١] ، فإني أقرأ هذه الكتب ، قد وأصبحت مبتلى بها ، ولم أعد استطيع أن اتخذ قراراً بغير الرجوع إلى هذه الكتب أستشيرها ، فماذا أعمل ؟

فسأله الإمام مستغرباً : أو تعمل بما في هذه الكتب ؟ أنت من رواة أحاديثنا ومن اصحابنا ، كيف تعمل بها ؟ ! قم إلى بيتك

---

(١٠) المصدر نفسه ، الخطبة ٧٨ .

(١١) التنجيم الفلكي غير التنجيم الأحكامي . فالتنجيم الفلكي هو التنجيم الرياضي ويشمل حساب الخسوف والكسوف وأمثالهما في الرياضيات الفلكية . أما التنجيم الأحكامي فهو ما يتعلق بحساب السعد والنحس في الأيام والساعات ، وهذا هو التنجيم الخرافي غير المقبول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحرق كل تلك الكتب ، على أن تتعهد بألاّ ترجع إليها أبداً .

على الرغم من أن أمثال هذه الروايـة كثيرة ، فـإن هناك مجموعة أخـرى من الروايـات الواردة في ذيـل آية ﴿في أيـام نحسات﴾ (سورة فصلت) .

يستنبط من مجموعة الروايات الواردة إلينا من أهل البيت الأطهار أن هذه الأمور إما أنها لا تأثير لها ، أو إنها إذا كان لها شيء من التأثير فإن ذلك يزول بالتوكل على الله وعلى النبي وأهل بيته . وعليه ، فإن المسلم الشيعي الحقيقي لا يولي اهتمـامه لهـذه الأمور . إذا أراد السفـر يدفـع صدقـة ويتوكـل على الله ويتوسل بأولياء الله ولا يلقي بالاً لهذه الأمور .

انظروا إلى تاريخ حياة الـرسول (ص) والأئمـة الأطهار ، اتعثرون حتى على مرة واحدة عملوا فيها بهذه الأمور ؟ ! هـل اتبعوها في منـطقهم العملي ؟ والسيرة تعني التحقيق في هـذه الأمور .

في خراسان عادة سائدة وكذلك في بعض مناطق إيـران الأخرى . في يوم من الأيام شرحها لنا أستاذنا الكبير المرحوم ميرزا علي آقا الشيرازي وبين منشأهـا وماهيتهـا . في مدينتنـا (فريمان) كانت تروج خرافة تقـول : إذا كان أول من يصـادفه المسافر سيداً [من ذرية أهل البيت عليهم السلام] فإن سفرتـه تكون منحوسة ولن يرجع منها . امـا إذا صادف غـريباً ، فـإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سفرته تكون ميمونة .

هذا في الواقع ما كـان الناس يؤمنـون به . وأنـا شخصياً لاحظت وجود هذه الخرافة في بعض المدن التي زرتها .

كان المرحوم ميرزا علي آقا الشيرازي يقـول : « إن لهذه القضية جذوراً . فمنذ أيام العباسيين لم يكن السادة من عتـرة الرسول يقتلون وحدهم حيث يعثرون عليهم ، بل يقتلون معهم أرباب المكان الذي يعثرون عليهم فيه . من هنا بدأ يترسب في نفـوس النـاس أن « السيــد » نحس وشؤم . الشؤم بـالمعنى السياسي . أي إذا جاء أحد ابناء علي (ع) إلى بيت أحد، فليتوقع هذا خراب بيته ، لأنه إذا قبض عليه لا يقتل وحده ، بل يقتلون معه العائلة التي حل في بيتها . ثم تبدل هذا النحس السياسي في أذهان الناس شيئاً فشيئاً إلى نحس تكويني ونحس فلكي ، حتى وصــل إلى هـذه الحــال . فعلى الـرغم من انقــراض العباسيين ، ظل الناس يتصورن « السيد » نحساً بذاته ، وعلى الأخص في حالات السفر » .

لقد اتفق لي مثل هذا في إحدى سفراتي . كانت السفرة الثانية أو الثـالثة لي من « فـريمان » إلى «قم» وكان جمع من الإخوان قد حضروا لتوديعي ، فودعت المرحومة والدتي وركبت الفرس (لأن نقطة تحرك السيارة كانت تبعد بحوالي فرسخين) استعداداً للسفر ، وفجأة رأيت « سيداً » يتقدم . فقلت : أسأل

الله ألا يرى النسوة هذا « السيد » الآن لأنهن إذا رأينه فلن يدعنني أسافر . تقدم السيد وأمسك بزمام الفرس . كان يريد أن يعلم إن كنت أسافر مباشرة من « فريمان » إلى « قم » أم أني سأرجع ثم أسافر إلى « قم » . ثم قال لي : « إن شاء الله لا ترجع » فقلت : « لا ، إن شاء الله لا أرجع ثانية » وقلت في نفسي : لو سمع النسوة أن سيداً قد اعترضني ، وأنه دعا الله ألا أرجع ، لكان من المستحيل أن يتركنني اسافر . ولكني سافرت ورجعت، وها أنا أتحدث إليكم .

على الفرد المسلم ألا يتعب فكره بأمثال هذه الأوهام ، إذ لو كانت هذه صحيحة فما معنى « التوكل » ؟ إننا نذكر التوكل والتوسل ، ثم نخشى من القطة السوداء! إن من يعتقد بالتوكل ، على الله وبالتوسل بأوليائه ، ينبغي عليه ألا يورد هذه الخرافة على لسانه ، وإن من يؤمن بالولاية عليه أن يترك هذه الأوهام .

وهكذا نلاحظ أن من المبادىء الأصيلة في السيرة النبوية هو إلغاء أمثال هذه الأوهام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة ونسبية الأخلاق

سبق أن طرحنا فكرة ما إذا كـان يمكن للإنسـان أن يلتزم منطقاً ثابتاً ومعايير ثابتة في حيـاته بصـرف النظر عن اختـلاف الظروف الزمانية والمكانية والإجتماعية والطبقية . ثم قلنا : إن هذا ممكن ، وإلا لما كان هناك ما يقتضينا أن نتخـذ من سيرة الرسول الكريم ، بحسب تعبير القرآن « أسوة حسنة » ولما كان معنى لحث الناس على الإقتداء بإنسان كامل من خلال التعرف على حياته وسيرته .

فهذا إنسان عاش قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ، وفق منهاج ومنطق خاص . أما أنا فلست اعيش تحت ظروف مماثلة لظروفه ، ولا كان هو يعيش في ظروف مثل ظروفي ، وإن لكل ظرف منطقه . فعلى هذا الكلام ، لا يمكن لأحد أن يكون قدوة ومثالاً لأحد . ولهذا بحثنا هذا الموضوع لتوضيحـه ، ولسوف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعـود إليه بعـون الله تعالى وبمشيئتـه ، وذلك لأن الألسن في عصرنا هذا بدأت تلوك أمراً سببه عدم إدراك هذه المسألة كما ينبغي ، الأمـر الـذي أدى بـدوره إلى سـوء التعليم في بعض الأحيان ، وتلك المسألة هي نسبية الأخلاق .

نسبية الأخلاق تتناول القيم الإنسانية ، والمعايير التي يقاس عليها كون الإنسان صالحاً أو طالحـاً ، وما هـو الجيد ومـا هو الرديء ، وكيف يسلك الإنسان وما ينبغي عليه تجنبه ، فهل هذه أمور نسبية أم مطلقة ؟ ولولا كثرة طرح هذه المسألة في المقالات والكتب والمجـلات والصحف ، لما تـطرقت إليهـا ، ولكن إصرار وسائـل النشر على تنـاول هذا المـوضوع حملني على معالجته أيضاً .

يرى بعضهم أن الأخلاق قضية نسبية على وجه العموم ، أي إن مقـاييس الحسن والقبح الأخـلاقية نسبيـة . أو بعبارة أخرى : إن إنسانية الإنسان أمر نسبي . والقول بـ (النسبية) يعني أن المبادىء والمقاييس الأخلاقية تتغير بتغير الزمان والمكان ، فحالة ما في وقت ما وفي ظرف ما تكون حسنة أخلاقياً ، والحالة نفسها في وقت آخر وفي ظرف مختلف تكون ضد الأخلاق . فقضية ما في ظروف وحالات معينة تكون إنسانية ، وفي ظروف وحالات أخرى تكون لا إنسانية . هذه هي نسبية الأخلاق التي تدور على الألسن كثيراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إني أبـدأ الآن بعرض أصـل الدعـوى ، ثم أشرح ذلـك وأوضحه .

الأصـل هو أن مبـادىء الأخلاق الأوليـة والقيم الإنسانيـة الأصيلة ليست نسبية ، بل هي مطلقة . إلا أن القيم الثانوية هي التي تكون نسبية . إننا نواجه هذه المسألة في الإسلام أيضاً . والآن سوف أتحدث في السيرة النظرية ، وخلال ذلـك سوف يتضح هذا الموضوع تدريجياً .

عندما نقرأ عن سيرة رسـول الله (ص)(١٢) نجد أن هنـاك مجموعة من المبادىء الباطلة الملغية أي إن الرسول الكريم لم يستعمـل تلك المبادىء في سلوكـه ومنطقـه العملي أبداً وفي مختلف الظروف . وكذلك نبذها الأئمة الأطهار . إن أمثال هذه المبادىء والمقاييس مردودة في الإسلام تحت كل ظرف وفي كل زمان ومكان .

لقد سبق أن قلت في محاضرات سابقة : إن بين أيدينا ـ نحن الشيعة ـ رأس مال حـرم منه أهـل السنة ، فهم يقصـرون فترة المعصومية ـ اي الفتـرة التي وجد فيهـا شخص معصوم يمكن

---

(١٢) لا بد من الإنتباه الى أننا عندما نقول : سيرة الرسول الأكرم ، ينبغي ألاّ نقول : إن سيرة الحسين هي كذلك ، وان سيرة الإمام علي كذلك ، إذ ان ذلك لا شك فيه ، غير أننـا نتكلم على الموضـوع من حيث وجود النبي الكريم (ص) ، وإلا فليس ثمة اختلاف .

الإقتداء به في سيرته ـ على ثلاث وعشرين سنة فقط ، وذلك لأنهم يعتبرون النبي الكريم هو وحده المعصوم . صحيح ان حياة الرسول مرت بظروف مختلفة ، وهي في كل تلك الظروف المختلفة ذات أثر تعليمي كبير جداً . ولكننا ـ نحن الشيعة ـ عندنا تلك السنوات الثلاث والعشرين ، ويضاف إليها حوالي مائتين وخمسين سنة أخرى ، أي إن لدينا ما مجموعه ٢٧٣ سنة من فترة العصمة التي يمكن أن نقتدي فيها بأي معصوم ونحذو حذوه . فمن بعثة الرسول (ص) حتى وفاة الإمام العسكري (ع) في ٢٦٠ هـ ، وهي بداية الغيبة الصغرى التي لم تكن العامة تستطيع خلالها الوصول الى الإمام المعصوم ، تبلغ الفترة الزمنية ٢٧٣ سنة (٢٦٠ زائداً ١٣ سنة من البعثة حتى الهجرة) وهي عند الشيعة فترة معصومية بكاملها .

خلال هذه الـ ٢٧٣ سنة تبدلت الظروف والأحوال تبدلات شتى ، ولكن كان لنا خلال ذلك كله إمام معصوم . لذلك فإن بإمكاننا أن نستنبط السلوك الصحيح تحت مختلف الظروف . فالإمام الصادق (ع) كان موجوداً في العصر العباسي ، مع أن النبي (ص) لم يمر بعصر يشبه العصر العباسي . فإن منابع ثروتنا أغنى وأشمل .

وقد نجد أنهم جميعاً ـ من النبي (ص) حتى الإمام العسكري (ع) ـ قد تركوا بعض المبادىء والأصول ، فنعرف أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه منهي عنها ، وينبغي تركها .

فمثلاً ، قد يكون أحد المعايير التي يتبعها بعض الناس في مسيرتهم في الحياة هو الغدر والخيانة . إن الغالبية العظمى من رجال السياسة في العالم يتوسلون بالغدر والخيانة للوصول إلى أهدافهم ، وبعض يقيمون كل سياساتهم على القدر والخيانة ، وبعض آخر بين بين . بعض يقول : في السياسة لا معنى للأخلاق ، ولا ينبغي أن يكون لها مكان فيها : فالسياسي يقطع الوعود ويمضي العقود ، ويقسم أغلظ الأيمان ، ولكنه لا يلتزم بكلامه إلا إذا بقيت مصالحه مضمونة ، فما أن تبتعد مصالحه ومنافعه عن تعهداته ووعوده ، حتى ينفض يده من تلك التعهدات والوعود فوراً .

في كتاب تاريخ الحرب العالمية الثانية الذي كتبه چرچيل (والذي قرأت جانباً منه يوم كانت الصحف الإيرانية تنشره) إشارة إلى هجوم الحلفاء على إيران ، يقول فيها : « على الرغم من أننا كنا قد عقدنا مع إيران اتفاقية عدم اعتداء وعدم تدخل ، وأننا ما كان لنا أن نهاجمها ، إلا أن أمثال هذه الأمور تصح في الحالات التافهة الصغيرة . . إنها تصح عندما يتفق فردان على أمرٍ ما . أما في السياسة ، عندما يتعلق الأمر بمصلحة أمة ، فإن كل اتفاق يكون لغواً موهوماً . أنا لم أكن قادراً على التغاضي عن مصالح بريطانيا العظمى بحجة أن نقض الإتفاق يناقض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخلاق ، ونقضنا لاتفـاقنا مـع إيران يعتبـر مخالفـاً للمبادىء الإنسانية . إن امثال هذه الأقوال والقضايـا لا تكون صحيحـة أصلاً في المقاييس الكلية الواسعة . »

هذا هو مبدأ الغدر والخيانة ، المبدأ الذي كان يسير عليه معاوية في سياساته بصورة مطلقة . وإن ما كان يميز علياً (ع) في سياسته عن غيره (باستثناء النبي (ص) طبعاً) هو أنه كان يتجنب أسلوب الغدر والخيانة في سلوكه وسياسته ، حتى لو كان ثمن ذلك ذهاب الخلافة من يده . لماذا ؟ لأنه كان يقول : أنا حارس هذه الأصول ، وإن فلسفة خلافتي هي أن أحافظ على المبادىء الإنسانية . . المحافظة على الصدق والأمانة والوفاء . إنني ما تقبلت الخلافة إلا لكي أقيم هذه الموازين بين الناس ، فكيف يمكن أن أضحي بها من أجل الخلافة ، مع أن خلافتي هي من أجلها ؟

إنه لا يقول هذا عن نفسه فحسب ، بل يريده من أصحابه أيضاً ، ففي العهد الذي عهد به إلى مالك الأشتر يشير إلى هذه الفلسفة ويقول :

« . . وإن عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَستهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالوَفاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمانَةِ . . وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المُشْرِكُونَ فيما بَيْنَهُمْ دُونَ المُسْلِمِينَ لِما اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَواقِبِ الغَدْرِ ، فَلا تَغْدُرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ . . » .

وطبيعي ألا يكـون هناك عهـد إذا نقض العـدوُّ عهـده . فالقرآن يقول بخصوص المشركين وعبدة الأصنام الذين عقدوا مع النبي عهوداً : ﴿فَما اسْتقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[١٣] .

إن ما يدفع الإمام إلى هذه القولة في عهده لمالك الأشتر هو الحكم الشرعي « وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضاهُ بَيْنَ العِبادِ بِرَحْمَتِـهِ، وحَـرِيمـاً يسْكُنُـونَ إلى مَنْعَتِـهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إلى جِوارِهِ ، فَلا إدْغالَ وَلا مُدالسَة وَلا خِداعَ فِيهِ . . . »

والآن فلنسأل الذين يقولون : إن الأخلاق نسبية : هل يرون مبدأ الغدر والخيانة في قائد الأمة أمراً نسبياً ؟ أي هل يعتقدون أن عليه أن يغدر ويخون في ظرف ما ، وألا يفعل ذلك في ظرف آخر ؟ فمرة يكون مبدأ الغدر والخيانة صحيحاً ، وفي أخرى لا يكون ؟ ! أم يرون إدانة هذا المبدأ دائماً ؟ مـا رأيهم في مبدأ الإعتداء ؟ فالإعتداء يعني التقدم خطوة وراء مالـك من حق ، حتى على العدو . فإذا كان العدو مشركاً وكافراً وضد عقيدتك ومذهبك ، أفلا ينبغي أن تكون هناك حدود ؟ يقول القرآن بأن هناك حدوداً :

---

(١٣) سورة التوبة ، الآية٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿يَـا أَيُّهـا الَّـذِينَ آمَنُـوا قَـاتِلُوا الَّـذينَ يُقَـاتِلُونَكم وَلا تَعْتَـدُوا﴾[14]فما معنى « ولا تعتـدوا » ؟ هنا تـذكر التفـاسير ، وكذلك الفقه ، أن النبي (ص) وكذلك الإمام علي (ع)[15] كانا في كل الحروب يوصيان الجنود بعدم الإجهاز على الجريح من الأعـداء ، وبعدم التعـرض للشيـوخ الـذين لم يشتـركـوا في الحـرب ، ولا لأطفالهـم ، وبعـدم منـع المـاء عنهـم . . هـذه الأعمال المألوفة اليوم ، وإنه لعمل مناف للإنسانيـة أن يمنعوا الماء،أو أن يلقوا القنابل السامة . . إنه اعتداء وتجاوز . اقرأ في القرآن وصاياه بشأن كفار قريش ، على الرغم من كونهم كانوا ألد أعداء الرسول (ص) . فهم لم يكونوا مشركين وعبدة أصنام وأعداء فحسب ، بل كانوا قد حاربوا النبي عشرين سنـة ، لم يتورعوا خلالها عن التوسل بكل ما كان يمكنهم التوسـل به . إنهم الذين قتلوا عم النبي وأعزاءه ، ولشد ما آذوا النبي يوم كان في مكة وعذبوا أصحابه. وهم الذين كسـروا سن النبي وشجوا جبينه . ومع ذلك ففي فترة فتح مكة تنزل سورة المائدة ، آخر سور القرآن نزولاً ، في الوقت الذي كان قد بقي من المشركين عدد قليل ، وكانت السلطة بيد المسلمين ، فتقول :

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كونُوا قَوّامِينَ لله شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا

---

(١٤) سورة البقرة ، الآية١٩٠ .

(١٥) انظر نهج البلاغة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىَ﴾[16] .

أي لا تتجاوزوا حدود العدل. فهل يمكن القول بأن تخطي حدود العدل جائز بعد هذا ؟ أم أنه غير جائز إطلاقاً؟ إن لكل شيء ميزاناً وحداً ، فإذا بلغنا ذلك علينا ألاّ نتعداه . فما هو هذا الحد ؟ لماذا نحارب العدو ؟ الحرب مرة تكون للتنفيس عن العقد النفسية ، وهذه حرب لا تمت إلى الإسلام بصلة . ومرة تقول : إنك تحارب أعداء البشرية وتريد أن تزيل الأشواك عن طريق الإنسانية . فإذا رفعت الأشواك فكفَّ ، ولا تتعرض للأغصان التي لا أشواك فيها هذا هو الحد ، وهذا هو مبدأ من المبادىء .

ومن المبادىء الأخرى « الظلم » و« الإسترحام » وهي من المبادىء التي لم يقترب منها النبي (ص) ولا أوصياؤه . فقد كان من المستحيل على المسلمين إذا رأوا العدو قوياً أن يلووا اعناقهم استرحاماً وتذللاً. كما كانوا أبعد من أن يتوسعوا بالظلم . هذا من الأساليب التي لم يستخدمها النبي ولا الذين تربوا تربية إسلامية .

إلا أن هناك قواعد وأصولاً أخرى كثيراً ما مارسوها ولو

---

(١٦) سورة المائدة ، الآية ٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نسبياً . وهنا تظهر مسألة النسبية التي سأشرحها .

هنالك مبدأ نطلق عليه اسم مبدأ القـوة ؟ وثمة مبـدأ آخر يعرف باسم مبدأ فرض القوة . فالأولى يعني أن يكون الإنسان قوياً حتى لا يطمع الأعداء فيه ، لا أن يكون قوياً لكي يعتدي . القرآن يصرح قائلاً :

﴿وَأَعِـدُّوا لَهُمْ ما اسْتَـطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبـاطِ الخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١٧] .

فالمطلوب هنا ذلك القدر من القوة والإقتدار الذي يخيف الأعـــداء . . مم يخيفهم ؟ من القيام بـالعـدوان . فكلمـة « ترهبون » ـ يجمع المفسرون على القول بأنها تعني : إخافـة العدو بحيث لا يجيز لنفسه مهاجمتكم . فهل هذه قاعدة مطلقة أم نسبية ؟ هل هي معتبرة عند الإسلام في ظروف خاصة أم هي كذلك دائماً ؟ هي كذلك دائماً ، فما دام هناك عدو ، فإن مبدأ إعداد القوة قائم .

إلا أن هناك مبدأ آخر هو مبـدأ إعمال القـوة ، وهو مبـدأ يختلف عن مبدأ القوة نفسه . فهل يجيز الإسلام إعمال القوة ويستسيغـــه أم لا ؟ هل كان النبي (ص) في سيرتـه يلجأ إلى إعمال القوة ؟ هل كان يجيز التوسل بهذا المبدأ أحياناً ، إذا لم

---

(١٧) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكن إصلاح الطرف الآخر إلا بالقوة ؟ من المناسب هنا أن ننقل التعبير الذي يرد في نهج البلاغة بهذا الشأن ، فهو يبين جانباً من سيرة النبي (ص) : «طبيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ»[18] فيشبهه بالطبيب ، أي إن أسلوب الرسول الكريم أشبه بأسلوب الطبيب المعالج لمريض . فمن جملة خصوصيات الطبيب بالنسبة الى مريضه أنه يترحم على حاله ، كما يقول الإمام علي (ع) في نهج البلاغة : « وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأهل العِصْمَةِ وَالمَصْنوع إِلَيْهِمْ فِي السَّلامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ والمَعصِيَةِ »[19] .

والمذنبون حقيقون بالرحمة . إلا أن هذا لا يعني تركهم وشأنهم . . فإذا كان المريض حقيقاً بالترحم عليه ، فإنك لا تسبه . ولكنك لا تهمله ، بل عليك أن تعالجه . فسلوك النبي (ص) كان سلوك الطبيب المداوي ،

ولكن ثمة فرق بين طبيب وطبيب . فهناك الطبيب الثابت ، وهناك الطبيب السيار . فذاك طبيب قد افتتح عيادة جلس فيها ينتظر المرضى ، فمن يراجعه يطببه ويكتب له الدواء . أما إذا لم يتطبب عنده أحد ، فلا يذهب للبحث عن مرضى .غير أن الطبيب السيار لا يقنع بذلك بل يذهب بنفسه ليعالج المرضى .

كان النبي (ص) يذهب بنفسه ليعالج مرضى الأخلاق

---

(١٨) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٧ .

(١٩) المصدر نفسه ، الخطبة ١٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمعنويات . كان هذا ديدنه على امتداد حياته . لماذا سافر الى الطائف ؟ وما كان دخوله المسجد الحرام إلا بحثاً عن هذا وذاك ، يقرأ القرآن فيجذب الناس ويدعوهم إلى الإسلام ؟ عند حلول الأشهر الحرم كانت تزداد مسؤوليته ، فقد كانت القبائل العربية تقدم للحج على وفق طريقتهم في عبادة الأصنام ، فكانوا يتجمعون في عرفات ومنى ، وكان النبي (ص) يستفيد من تلك الفرصة ليختلط بالناس . وكان أبو لهب يتبعه ويقول للناس : لا تسمعوا له ، إنه ابن أخي وأنا أعرفه وأعرف أنه كذاب (العياذ بالله) إنه مجنون ، وما إلى ذلك . إلا أن النبي لم يكن ليكف عما كان فيه . . فلماذا كل هذا ؟ .

يقول الإمام علي (ع) : إن سلوك النبي (ص) كان سلوك الطبيب ، الطبيب السيار لا الطبيب القابع في عيادته ، لا يجيب إلا من يسأله ، ولا يرى مسؤوليته تتعدى ذلك . كلا ، كان الرسول الأكرم يرى مسؤوليته أكبر من ذلك بكثير . لقد جاء في بعض الروايات أن بعضهم رأى المسيح عيسى (ع) يخرج من دار امرأة سيئة السمعة . فسئل : يا روح الله ، ما كنت تصنع في دار هذه ؟ فقال : أنا طبيب وكنت في دار مريضة . . والكلام يطول .

يشير الإمام علي (ع) إلى النسبية في سيرة النبي (ص) وسلوكه بقوله : « قَدْ أَحْكَمَ مَراهِمَهُ وَأَحْمى مَواسِمَهُ » هل كان

النبي (ص) يعامل الناس بالحسنى أم بالخشونة ؟ يقول علي : إنه كان يعاملهم بالإثنين ، ولكنه كان يعرف موضع كل منهما ، فمرة كان عنده « المرهم » وأخرى عنده « الميسم » ، فالمرهم في يد ، والميسم ـ أو آلة الوسم المحمية ـ في اليد الأخرى . فحيثما أمكنت المعالجة بالمرهم كانت هي العلاج ، فإذا لم يكن المرهم مجدياً وكان العضو فاسداً ، كان لا بد من الكي أو البتر لعلاجه . إذن فثمة ظرف يقتضي الملاينة والرفق ، وثمة ظرف يقتضي الشدة والحزم ، وكان النبي (ص) يستعمل كلا في موضعه ووقته .

وعليه فإن مبدأ القوة شيء ، ومبدأ استعمال القوة شيء آخر .

في الحقيقة . على المجتمع الإسلامي أن يكون أقوى المجتمعات في الدنيا ، لكيلا يطمع العدو بثرواته ورؤوس أمواله وأرضه وأهله وحضارته . وهذا المبدأ ليس نسبياً ، بل هو مطلق . ولكن استعمال القوة أمر نسبي .

من المبادىء الأخرى المطلقة من جهة والنسبية من جهة أخرى هو مبدأ البساطة في الحياة ، أو اختيار البساطة في الحياة . كان هذا من المبادىء الأصيلة عند النبي (ص) . إن مصادرنا لمعرفة أحوال النبي (ص) وسيرته كثيرة جداً . إننا نسمع سيرته على لسان علي (ع) ، وعلى لسان إمامنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصادق (ع) وعلى ألسنة باقي الأئمة (ع) ، وعلى ألسنة سائر الصحابة أيضاً . . إلا أن هناك رواية واحدة أكثر من سائر الروايات تفصيلاً ، وهي التي ، يرويها الإمام الحسن المجتبى(ع) عن خاله بالتبني[٢٠] ، هند بن أبي هالة ، جاء في الرواية أن الإمام الحسن (ع) سأل خاله هنداً أن يصف له جده رسول الله (ص) كما رآه . فوصف هند الرسول للحسن ، ونقل الحسن هذا الوصف ذاته للناس فورد في الروايات ، وهي تشمل دقائق حياة النبي (ص) كما نقلها هند وكما نقلها آخرون .

ومن جملة من نقل جوانب من حياة الرسول الكريم أحد صحابته المشهورين (يحتمل أن يكون أبا سعيد الخدري) . إن من الأوصاف التي أجمع الرواة على نقلها قولهم : « كان رسول الله (ص) خفيف المؤونة » أي إنه عاش عيشة البساطة في الطعام واللباس والمعاشرة والمعاملة . فكانت البساطة وخفة المؤونة هي الصفة الغالبة على حياته . « كان رسول الله خفيف

---

(٢٠) قليل من يعرف أنه كان للحسنين خال بالتبني . إنه(هند بن أبي هالة) وقد تبناه النبي (ص) ، فيكون أخا السيدة فاطمة الزهراء (ع) بالتبني . لقد كان ابن خديجة الكبرى من زوجها السابق ، وهو مثل (أسامة بن زيد) الذي كانت أمه (زينب بنت الجهم) وتبناه النبي (ص) أيضاً . إلا أن أسامة أصغر من هند ولم يدرك سوى الفترة التي كان فيها النبي (ص) في المدينة . أما هند فقد بقي مع الرسول فترة الثلاث عشرة سنة المكية ، وعشر سنوات بعد الهجرة الى المدينة ، حيث كان يعيش في بيت النبي (ص) كأحد أولاده . إنه هو الذي ينقل لنا تفاصيل حياة الرسول الكريم (ص) .

المؤونة جميل المعاشرة » .

كان النبي (ص) يتجنب أسلوب الإرهاب ، مع أن أغلب حكام العالم لا يتجنبونه ، بل يلجاؤون إليه في أكثر الأحيان . لقد جاء في أحد الكتب أن محمد خان القاجاري عندما كان في كرمان وأقام مجازر لقتل الناس قتلاً عاماً ، وسمل أعين جموع غفيرة ، وملأ القنوات بالجثث ، وغير ذلك من الخراب والدمار مما يثير الدهشة حقاً ، جاءه يوماً جندي وأخبره أن الجندي أو الضابط الفلاني ينوي قتله . فأمر محمد خان بالتحقيق في ذلك ، فظهر كذب الجندي ، وأن سبب وشايته هو نزاع بينه وبين ذلك الضابط حول امرأة ، فأراد الجندي أن ينتقم بتلك الطريقة . فاوعز محمد خان إلى ولي العهد ، فتح علي شاه (وهو ابن أخيه ، لأن محمد خان لم يعقب) الذي كان يسمى يومئذ بابا خان ، أن يقوم بالتحقيق بنفسه ، ففعل ، فتأكد كذب الجندي . فسأله الشاه : ما العمل في رأيك ؟ فقال : إن كذب الجندي واضح ولا بد أن يلقي جزاءه . فقال : هذا الذي تقوله صحيح من حيث العدالة والمنطق . ولكنه ليس صحيحاً في منطق السياسة . فقال : كيف ؟ قال : في منطق العدالة هذا صحيح ، لأن المذنب يجب أن ينال عقابه . ولكن هل نسيت أنك قضيت أياماً في التحقيق في هذه القضية ، ولم يكن يدور خلال ذلك من حديث سوى حديث اغتيال محمد خان القاجاري ، فهذا يقول : أنت كنت تنوي قتله ، وذاك يقول : لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنت الذي كنت تريد قتله ، وجئت بأربعة شهود شهدوا بأنه لم يكن في الأمر أي نية للقتل ، إلا أن فكرة قتلي تجسدت في أذهان هؤلاء ، في أذهان الشهود وفي أذهان المتهمين . فهناك عدد من الناس ظلت تدور في أذهانهم فكرة اغتيالي لبضعة أيام ، فليس من المصلحة ـ إذن ـ أن يبقى هؤلاء على قيد الحياة . ثم أمر بهؤلاء جميعاً فقتلوا لأن حديث اغتياله قد دار في أذهانهم وعلى ألسنتهم !! هكذا فعل جنگيز خان وتيمور الأعرج . إن هؤلاء قد استغلوا ـ في الأقل ـ أوهام الناس .

يقول الإمام علي (ع) : « لَقَدْ دَخَلَ مُوسى بن عِمرانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هارُونُ (عليهما السلام) عَلى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِما مَدارِعُ الصُّوفِ وَبِأَيْديهِماالْعِصِيّ ، فَشَرطَا لَهُ إنْ أَسْلَمَ بَقاءَ مُلْكِهِ وَدَوامَ عِزِّهِ[٢١] . فقال : أَلا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطانِ لي دَوَامَ العِزِّ وَبقَاءِ المُلْك ، وَهُما بما تَرَوْنَ مِنْ حَالَ الفَقْرِ وَالذُّلِّ ، فَهَلاّ أُلْقِيَ عَلَيْهِما أساوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ؟ إعْظاماً لَلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ واحتقاراً لِلصُّوف ولبسه » .

لقد حسب الغنى عظمة والفقر مذلة ، يقول في نفسه : إذا صح ما يقولان من أن لهما علاقة بمبدأ إلهي ، فلماذا لم يعطهما ربهما من كنوزه وذهبه ؟ وهنا يشرح علي (ع) الفلسفة في أن الله

(٢١) نهج البلاغة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعث النبيين هكذا ، فيقول : « وَلَو أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ لأَنْبيائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أنْ يَفْتَح لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبانِ وَمعادِنَ العِقْيَانِ وَمغَارِسَ الجِنانِ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّماءِ ووُحُوشَ الأرضِينَ لَفَعَلَ ، وَلَو فعَلَ لَسقَطَ البَلاءُ وَبَطل الجَزاءُ وَاضْمَحَلَّت الأَنْبَاءُ ، وَلما وجَبَ لِلقابِلينَ أُجُورُ المُبْتَلِينَ وَلا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوابَ الْمُحْسِنِينَ وَلا لَزِمتِ الأَسْماءُ مَعانِيها » .

عندئذ لا يكون الإيمان إيماناً ، فالإيمان ما كان خالياً عن الاجبار . والمعجزة تنفع فإذا بقيت ضمن حدودها كدليل ، وإذا تجاوزت ذلك الحد ألغت فرصة الإختيار . لذلك إذا أرادوا أن يتجاوزوا بالمعجزة حد الدليل ، فالقرآن يردهم مبيناً أن النبي (ص) لم يأت لصنع المعاجز بل جاء ليعرض الإيمان على الناس ، ولكي يثبت صحة دعواه في رسالته يأتي بمعجزة بإذن الله . ولكنه بعد إتمام الحجة على الناس يغلق باب المعاجز ، فهو لم يأت لذلك ، ولا للإستجابة لرغبات هذا وذاك بصنع المعاجز . فيقول الإمام علي (ع) ان الله لو فعل ذلك لما بقي إيمان ، ولذلك فإن الله لا يمنح أنبياءه من الأبهة والفخفخة ما يكون هو سبب التأثير في الناس ، وليس هذا من سلوك الأنبياء

« وَلَكنَّ اللهَ سُبْحانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولي قُوَّةٍ في عَزائِمِهِمْ ، وَضَعَفَةً فيما ترى الأَعْيُنُ مِنْ حالاتِهِمْ » .

فالقوة التي أعطاها الله لرسله كامنة في أنفسهم وأرواحهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك القوة التي تحملهم على أن يتقدموا إلى فرعون بمدارع الصوف وبالعصي في أيديهم ، ويكلموه بتلك الجرأة وقوة العزيمة .

« مَع قناعَةٍ تَمْلأُ القُلُوبَ والعُيونَ غِنى ، وَخصاصةٍ تَملأُ الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ أَذَى » .

قد لا اكون قادراً على شرح هذه العبارة كما يقتضي ، ولكني أود لو أنني قدرت ، ولو أنكم استطعتم أن تفهموها .

يقول الإمام : لقد أودع الله في داخلهم قوة العقل والتصميم والإرادة ، بالإضافة إلى قناعة تغنيهم عن الحاجة . فهناك شخص بما« **عنده** » من ثروة يملأ العيون ، وثمة شخص بما « **ليس عنده من ثروة** » ولكن بما« **عنده من قناعة** »يملأ العيون أيضاً فالأنبياء يملأون العيون بكونهم «**لا يملكون ولا يحتاجون** » . إنهم ليسوا ممن يقول : عندي الأرض الفلانية ، والدار الفلانية ويسير خلفي كذا عدد من الخدم والعبيد والخيل . أبداً ، لم يكن ثمة شيء من هذا الجلال والجبروت في الأمر . كان الأنبياء يعيشون في منتهى البساطة ، ولكنها كانت بساطة تذهل المتكبرين والمتجبرين .

يذكر التاريخ أنه كان هناك حكيم معروف من الحكماء الكلبيين يدعى (ديوجين) ولمولوي فيه بعض الشعر . يقال أنه عندما فتح الإسكندر المقدوني إيران جاء الناس أمامه يعرضون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطاعة والولاء ، غير أن (ديوجين) هذا لم يعتن به ولم يحضر مع الحاضرين . فقال الإسكندر : أنا سأذهب إليه . ورآه جالساً في الصحراء تحت الشمس ، فتقدم الجمع حتى وصلت أصوات حوافر الخيل الى أسماع الحكيم ، فاستنهض نفسه قليلاً ونظر إليهم ، ثم تمدد في مكانه دون أن يعنى بهم . وقف الإسكندر على رأسه ، وتبادل معه بعض الكلمات . ثم سأله الإسكندر إن كان يجب أن يطلب منه شيئاً . فقال : أريد منك شيئاً واحداً . إنك بوقوفك تصد الشمس عني ، فهلا أكرمتني بذهابك : فرجع الإسكندر وحاشيته . وفي الطريق أخذت الحاشية تذم الحكيم لوضاعته وحقارته ، فقد جاءه الإمبراطور بنفسه ، فكان بإمكانه أن يطلب منه ما يريد ، ولكنه لم يطلب . إلا أن الإسكندر الذي كان يرى نفسه قد تحطمت في مقابلته مع الحكيم ، قال قولته الشهيرة : لو لم اكن الإسكندر لوددت ان اكون « ديوجين » ولكنه كان الإسكندر وكان يجب أن يكون ديوجين أيضاً . أما قوله « لو لم أكن الإسكندر » فلا يعدو أن يكون مجرد تبجح .

فالإمام علي (ع) يقول ان الأنبياء كانوا يحيون حياة بسيطة ، وفي تلك البساطة كانت سيادتهم . سيادتهم الإلهية . لقد كانوا يملأون العيون ، لا بالجلال الزائل والمظاهر الخلابة ، بل بالجلال المعنوي الذي هو صنف البساطة .

أما نبينا الكريم (ص) فقد كان أشد ما يكون نفوراً من المظاهر والأبهة . فمثلاً عندما كان يمشي في الطريق لم يكن يسمح لأصحابه بالمشي خلفه . وإذا كان راكباً ، كان يطلب ممن يرافقه راجلاً أن يتقدمه بمشوار أو أن يتأخر عنه بمشوار ، أو أن يردفه خلفه ، لأنه لم يكن يرتضي أن يكون راكباً ويماشيه راجل . وفي المجالس كان يتخذ مجلسه بحيث لا يكون للمجلس صدر وذيل . إنه لم يتخل عن البساطة طيلة حياته ، فقد كان يرى هذا لازماً لكل قائد . وهكذا كان الإمام علي (ع) أيام خلافته .

إن الإسلام لا يجيز للقائد الذي يتسنم مركزاً معنوياً وروحانياً أن يسبغ على نفسه الجلال والجبروت ، بل إن ما يريده من جلال وجبروت يكمن في تلك البساطة نفسها ، في قناعته وفي روحه ، لا في التظاهر والبهرجة .

يقال : عندما وصل الإمام علي (ع) إلى أرض إيران ، جاء عدد من الدهاقين[٢٢] لاستقباله وراحوا يركضون قدامه . فسأل الإمام عما يفعل هؤلاء ، فقيل له : هذا ضرب من الاحترام والتكريم نبديه عادة لعظمائنا . فقال : إنكم بهذا تحقرون

(٢٢) دهاقين : جمع دهقان ، وهي تقريب لكلمة (دهگان) التي تعني (كدخدا) أي (رئيس القرية) لا الفلاح العادي . فالمستقبلون كانوا من رؤساء القرى والفلاحين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنفسكم وتضعون من قدرها ، دون أن تصل ذرة من الفائدة لذلك العظيم ، فاتركوا هذا . . إنني أبرأ من أمثال هذا التكريم . إنكم بشر وأنتم أحرار وأنا مثلكم من البشر ، فلا تفعلوا هذا ثانية .

جاء في الروايات[٢٣] أن عدداً من زوجات النبي شكون من أن حياتهن تجري في منتهى البساطة . فأجابهن النبي (ص) : إذا كنتن ترين حياتي بسيطة ولستن قادرات على تحملها ، فإني أطلقكن ، إن شئتن ، على ما يقول القرآن . ولكنهن جميعاً قبلن عيش البساطة مع النبي (ص) .

وعندما سمع عمر بن الخطاب بما جرى جاء الى النبي ليبحث الأمر معه . يقول عمر : رأيت عبداً على الباب يمنع الناس من الدخول. فقلت له : قل لرسول الله إن عمر بالباب . ولكن الرسول لم يأذن لي بالدخول ، فكررت ذلك ثلاثاً ، وفي الثالثة أذن لي بالدخول ، فدخلت الى غرفة مفروشة بحصير من خوص النخل ، وكان الحصير من الخشونة بحيث كان قد أثر في جسم رسول الله (ص) فازعجني ذلك . فقلت : يا رسول الله ، مالذي يدعوك الى هذا وأنت رسول الله ، ويغرق الأكاسرة والقياصرة في النعيم ؟ فنهض النبي (ص) من مكانه غضباً وقال : أتحسب أن ما عند أولئك نعمة أنا محروم منها ؟ والله إن

---

(٢٣) هذا الحديث يذكره أهل السنة أيضاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك كله سيكون من نصيب المسلمين ، ولكنه ليس مدعاة للفخر .

عندما قبض رسول الله ، ما الذي خلفه؟ لم يكن عنده سوى بنت واحدة . والمرء ـ انسياقاً وراء مشاعر الأبوة ـ يحب أن يترك لأولاده ما يوفر لهم معيشتهم . ولكن النبي (ص) لا يفعل ذلك ، بل بالعكس . يدخل يوماً على ابنته فاطمة فيرى في يدها سواراً من فضة ، وثمة ستارة ملونة معلقة ، فيعود من حيث أتى على الرغم من حبه الشديد لابنته . فتشعر فاطمة الزهراء بأن أباها لا يستسيغ لها حتى هذا . فتسرع وهي الكريمة التي تنفق كل ما لديها في سبيل الله ـ بإرسال السوار والستارة الى أبيها قائلة : إنه أعرف بمواضع صرفها في سبيل الله . عندئذ تنفرج أسارير رسول الله في ابتسامة رضى .

في ليلة عرس الزهراء يشترون لها ثوب زفاف واحد ، وإذ يطرق الباب في تلك الليلة سائل يقول : إنه عريان ، أما من كريم يكسوه ؟ فلا يلتفت إليه أحد سوى الزهراء العروس . فتنتحي خلوة تخلع فيها الثوب الجديد وترتدي ثوبها القديم ، وتدفع بثوب زفافها الى السائل . وحين يسألونها عما فعلت ، تقول : وهبته في سبيل الله . هذه أمور تافهة ، فلا أهمية للملابس ولا للمظاهر . وما مطالبة الزهراء بفدك إلا لأن الإسلام يدعو إلى إحقاق الحق ويوجبه ، وإلا فما فدك وغير فدك ؟ إن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عـدم مـطالبتهـا بفـدك يعني استسـلامهـا للظلم ، يعني « الأنظلام » ، وإلا فإن هذه العترة كـانت تبذل في سبيـل الله اضعاف فدك . ولكن بما أنه لا يجوز للإنسان أن « ينظلم » فقد كانت الزهـراء (ع) تطالب بحقهـا ، إذ كانت قيمـة فدك عنـد الزهراء قيمة حقوقية ، لا مادية . كان وجود فدك تحت تصرف الزهراء يعني استطاعتها الإنفاق والإحسان الى الآخرين .

نعم ، هكذا كانت ليلة زفاف الزهراء . ولكنها عند وفاتها لبست ثوباً نظيفاً طاهراً لكي تكون هكذا عند الإحتضار . تقول أسماء بنت عميس[(٢٤)] :

بعـد ٩٥ أو ٧٥ يومـاً من وفاة رسـول الله (ص) ، وكانت الزهراء خلالها طريحة الفراش ، لاحظت أن حالها قد تحسن قليلاً ، فقد نهضت من الفراش واغتسلت ، وقالت : يا أسماء ناوليني ثوبي النظيف . تقول أسماء : ففرحت كثيراً وحمدت الله على تحسن حالها . ولكنها أضافت ما قطع آمالي ، إذ قالت : « يا أسماء سـوف أنام الآن بـاتجاه القبلة فـلا تحدثيني بعض

---

(٢٤) لم تكن أسماء وصيفة أو خادمة . كانت جارية الزهـراء ، وكانت زوجـة جعفر ، وبعد جعفر تزوجت أبا بكر ، فولدت له (محمد بن أبي بكر) الرجل الشريف . وبعد أبي بكر تزوجها علي بن أبي طالب الذي تبنى محمد بن أبي بكر ورباه ، فتقبل ولاية الإمام علي ، ولم تكن له صلة بأبيه . وعليه فقد كانت أسماء امرأة جليلة تؤمن بولاية علي منذ أن كانت تحت أبي بكر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوقت ، ثم نادي علياً، فإذا لم أرد عليك فاعلمي أنها لحظة موتي » .

ولم تمضي برهة طويلة حتى صرخت أسماء وانطلقت تخبر علياً (ع) بوفاة فاطمة الزهراء (ع) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استخدام الوسيلة في حياة النبي (ص)

إن واحدة من المسائل التي يجب تعلمها من رسول الله (ص) هي مسألة استخدام الوسيلة . على الإنسان أن يكون مسلماً في أهدافه ـ أي أن تكون أهدافه مقدسة وعالية وربانية ـ وأن يكون مسلماً ـ أيضاً ـ في الوسائل التي يستخدمها للوصول الى تلك الأهداف . فما معنى هذا ؟

بعض الناس ليسوا إسلاميين من حيث أهدافهم ، أي إنهم طيلة حياتهم لا هدف لهم سوى الأكل واللبس واللذة . كل همهم هو في كيفية العيش بحيث يتمتعون بأقصى ما يمكن من الراحة والرفاه . وفي الواقع ، لا تتعدى أهداف هؤلاء أهداف أي حيوان أبكم . فهولاء لا يمكن أن يوصفوا بأنهم بشراً ، بل مسلمين :

إن الإنسان ـ من حيث كونه إنساناً ـ ينبغي أن تكون له

أهداف أرفع من مجرد إشباع شهواته الحيوانية . وأما إذا كان هذا الإنسان مسلماً ، فإن جميع أهدافه تتلخص في كلة واحدة ، وهي مرضاة الله . هذا فيما يتعلق بالهدف . ولكن لكي يصل الإنسان المسلم الى أهدافه العالية المقدسة ، لا بد له من وسائل توصله إليها . وتطرح المسألة هكذا :

أيكفي أن يكون الهدف إنسانياً ، أو قل : أن يكون إلهَياً ؟ فإذا كان الهدف إلهياً ، أيكون ثمة أهمية لما تكون عليه الوسيلة ؟ أيجوز التوسل بكل وسيلة للوصول الى ذلك الهدف السامي ؟ فالمفروض أننا نستهدف هدفاً مقدساً ، ولكن أيصح ـ لذلك ـ أن نستخدم أية وسيلة مهما تكن شريرة وفاسدة ؟ كلا . للوصول الى هدف مقدس يجب التوسل بوسائل مقدسة ، لا بوسائل فاسدة وغير مقدسة . وهذه بحد ذاتها قضية قائمة بذاتها . وسأضرب أمثلة لتوضيح الأمر .

إن هدفنا هو الدعوة للدين ، وليس هنالك هدف أسمى ولا أرفع . فمرة يكون هدفي هو نفسي ، أي أنني أريد أن أفعل شيئاً لمصلحتي الخاصة ولرفاهيتي ، فبديهي أنني ينبغي ألا أتوسل بوسائل غير شريفة .

ولكن إذا لم يكن هدفي مصلحة شخصية ، بل كان عملي من أجل الدين ، أفيجوز هنا أن أتوسل بكل وسيلة مهما تكن ؟

إذا قمت بتزوير ورقة ما لتمشية أموري الخاصة ، فإن الناس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيوبخوني ويخاصموني على التوسل بوسائل غير شريفة ، مثل التزوير والكذب والغش . ولكني قد أنوي القيام ببناء مسجد ، وهو عمل ليس لمصلحتي الشخصية ، ولا تراودني فيه - في الواقع - أية فكرة غير شريفة . فمنطقتنا تخلو من مسجد ، وأريد أن أبني مسجداً لفائدة الناس . إن بناء المسجد يستتبع كثيراً من المشاكل في الدوائر وفي تأمين الميزانية وفي التعامل مع مختلف الجهات المعنية . هنا نجد بعضهم يكون على استعداد للتوسل بالكذب والتملق وأي عمل محرم آخر .

فماذا نسمي هذا ؟ لعل بعضهم يرى في هذا عملاً مشروعاً ومقدساً وضرباً من التضحية من جانب القائم بالأمر لأنه منذ الصباح حتى المساء ، لا يترك شخصاً إلا واتصل به ولا وسيلة إلا توسل بها ، حتى يستحصل المبلغ اللازم لبناء المسجد ، ما أشد تضحيته وتنازله ! أهذا عمل صحيح ؟

وهناك آخر لكي يهدي الناس ويرشدهم ، يعمد الى وضع حديث عن النبي (ص) أو عن الأئمة (ع) . إنه لا هدف شخصي له في وضع هذا الحديث ، وإنما كل هدفه هو إخراج الناس من الضلال وهدايتهم ، فهو يظن أنه إذا اختلق لهم حديثاً عن الرسول أو عن الأئمة ، فإن الناس يزداد تعلقهم بالدين . . فلكي أمنع الناس من قضاء كل وقتهم في الغيبة ولغو الكلام - مثلاً - أجيء أنا واختلق حديثاً عن فضيلة الدعاء الفلاني ، لكي أحمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناس على الإنشغال بقراءة الدعاء عن الخوض في اغتياب الناس .

أو أضع حديثاً عن فضيلة قراءة السورة الفلانية من القرآن ، فمثلاً أقول : إن هذه السورة إذا قرئت أربعين مرة فإنها سيكون لها الأثر الفلاني العجيب . أهذا عمل حسن ؟ إن هناك عملاً مقدساً ، وهناك شخص يريد أن يحقق ذلك العمل المقدس عن طريق الإفتراء والإختلاق ، فهل يصلح عمله ؟

التاريخ يقول : كثيرون عملوا هذا ، ولقد قرأت عن هذا كثيراً في الكتب ، ومن ذلك ما جاء في مقدمة (مجمع البيان) هناك حديث عن (أُبي بن كعب) في فضائل قراءة سور القرآن ، وأن ثواب قراءة السورة الفلانية ثواب خاص ، وقراءة السورة الفلانية لها ثواب آخر . . فوضعوا لكل سورة فضيلة معينة ، وكل هؤلاء يروون عن النبي (ص) .

يقال : إن شخصاً سأل راوي هذه الأحاديث : كيف حدث أنك أنت وحدك تروي هذا الحديث ، ولم يروه أحد غيرك ؟ فقال : إن شئت الحق ، إني أنا الذي وضعت هذا الحديث ابتغاء مرضاة الله . فسأله : ولم فعلت هذا ؟ فقال : لاحظت أن الناس في مجالسهم يروون الحكايات والأساطير الجاهلية ، فتذهب أوقاتهم سدى . فلكي أنقذ الناس من إضاعة وقتهم ، رأيت أن احملهم على تلاوة القرآن ، وضعت هذه الأحاديث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على لسان رسول الله ، ولم أر ضرراً في ذلك .

وهناك آخر يرى الأحلام لمقاصد أخرى ، ظاناً أنه يهدي الناس بتلك الأحلام . فهل من الصحيح أن يتوسل المرء بوسائل غير شريفة لتحقيق أهداف شريفة ؟ كلا ، إنه غير صحيح .

لقد خطر لي هذا الخاطر مرات عديدة ، واليوم وأنا أطالع تفسير الميزان حول هذا الموضوع ، لاحظت أن العلامة الطباطبائي ، عند بحثه في آداب النبوة والدعوة ، والتي يستنتجها من القرآن وتدور حول سلوكية الأنبياء ، بما فيهم نبينا الأكرم (ص) ، يشير الى هذا الموضوع بالذات ، فيقول إن الأنبياء في سيرتهم وسلوكهم للوصول الى الحق لم يتوسلوا بالباطل بالمرة ، بل كانوا يتوسلون بالحق للوصول الى الحق .

***

لبعض المصريين آراء ضحلة بشأن قصص القرآن ، وهناك من غير المصريين من يرددها أيضاً . من ذلك قولهم : إن هذه القصة مثلاً غير موجودة في بعض تواريخ العالم . فليكن ، ثم ماذا ؟ هل تشمل كتب التاريخ جميع الحوادث التي تقع في الدنيا ؟ يمكن القول بأن تاريخ العالم منذ ظهور الإسلام حتى الآن يتسم بالوضوح . فإذا ابتعدنا عن الألف والأربعمائة سنة الماضية ، لا نجد للعالم تاريخاً صحيحاً . أما فترة ما قبل أربعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلاف أو خمسة آلاف سنة فيطلق عليها اسم فترة « ما قبل التاريخ » .

يقول بعضهم عن قصص القرآن : إن هدف القرآن هدف شريف ، فهو إنما ينقل القصص بهدف اعتبارها نصيحة وعبرة ، وإلا فإن القرآن ليس كتاب تاريخ حتى ينبري لتسجيل الوقائع . إن القرآن يذكر هذه القصص من باب النصيحة . فإذا كان الهدف هو النصيحة والعبرة ، فلا أهمية بعد ذلك في أن تكون القصة صحيحة أو مختلقة للوصول الى الغاية . ألم يقص الكثير من فلاسفة العالم الحكم والنصائح على ألسنة الحيوانات ؟ إن الناس يعرفون طبعاً أن تلك الحكايات لا أصل لها من الصحة ، ومن أمثلتها حكايات « كليلة ودمنة » . فلماذا يحكي الكتاب قصص الحيوانات ؟ للنصيحة وللعبرة ، أما الحكاية نفسها فليست واقعية ، إذ لا وجود لأسد وثعلب وأرنب يتحدثون .

يرى بعض آخر ـ والعياذ بالله ـ أنه لا ضرورة لأن نفكر فيما إذا كانت قصص القرآن تاريخاً أو تمثيلاً . وهذا هراء ، إذ من المستحيل أن يقوم الأنبياء ، في معرض سعيهم لإثبات الحقيقة ، بالإختلاق وذكر وقائع لم تقع ، حتى بصورة حكاية تمثيلية . هذا أمر يكثر حدوثه في ميدان الأدب في كل أرجاء العالم ، فبالإضافة الى الحكاية على ألسنة الحيوانات ، هناك من يحكى على ألسنة البشر . فحتى الحكايات التي يرويها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سعدي في « كلستان » « بوستان » ليس معلوماً أن تكون لها قيمة تاريخية بل إن الكثير منها لا شك في عدم الوجود لقيمة تاريخية لها ، وبعض الحكايات تنقض نفسها بنفسها ، ولكن هدفه هو النصح والإرشاد .

ولكن القرآن والنبي (ص) وكذلك الأئمة (ع) والذين تربوا في مدرسة الإسلام ، من المحال أن يحققوا هدفاً شريفاً بطريقة غير شريفة وبوسيلة باطلة ، حتى ولو كان بصورة تمثيلية .

لذلك فنحن لا نشك في أن قصص القرآن حقائق قد وقعت كما يصفها القرآن ، وإننا لاحاجة بنا إلى أي تأييد من أي كتاب تاريخي في العالم بعد أن ترد القصص في القرآن ، بل إن على تواريخ العالم أن تطلب التأييد من القرآن . إن العلامة الطباطبائي يثبت بأدلة من الآيات القرآنية كون سيرة الأنبياء منزهة عن التوسل بوسائل غير شريفة لتحقيق أهداف شريفة .

***

ثمة أقوال تدور في أوساط المحدثين ، وأقوال أخرى تدور في أوساط المتقدمين حول هذه المسألة ، أساءت الى الحقيقة أيما إساءة .

إن ما يدور على ألسنة المحدثين ، ويؤكدونه كثيراً استناداً الى أقوال الغربيين ، هو أن « **الغاية تبرر الوسيلة** » . أي اسع أن يكون هدفك شريفاً ، وفي سبيل تحقيق ذلك لك أن تتوسل بكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسيلة ، وإن لم تكن شريفة .

أما ما يدور على ألسنة المتقدمين فهو أنهم ينقلون حـديثاً معتبراً ، حتى أن الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه يذكره في « المكاسب المحرمة » وفي مكان آخر ، على ما اتذكر ، وهو يفسره في مكانٍ ولا يفسره في المكان الآخر . والحديث يقول : « إذا رأيتم أهـل البدع فبـاهتوهم » . أي واجهـوهم بالمنـطق والحجة الدامغة .

والبدعة هي إدخال في الدين ما ليس في الدين ، وإخراج ما في الدين عن الدين . فكلتا الصورتين بـدعة . والبـدعة غيـر الإبتـداع الـذي يعني الإتيـان بجـديـد ، حسب المصـطلح المعاصر . فالآتيان بالمعنى الجديد في الأمور غير الدينية أمر لا غبار عليه ، وهذا يحصل في الشعر ، كما يحصل في الفن وفي الفلسفة وفي غيرها ، وهو مستحسن . ولكن في الدين لا معنى للإتيان بـالجديـد ، وذلك لأننـا لسنا نحن الـذين أتينا بـالدين أصلاً ، إنما الذي أتى به هو النبي (ص) ، وحتى الأئمة لم يأتوا بدين . فالإمام وصي النبي وخزانة علمه وحافظ لما أخذه عن النبي . بل إن النبي ليس هو الذي أتى بالدين ، فالله هو الذي أوحى به لرسوله ، بوساطة ملك وبغير وساطته . والرسول يبلغ ما أنزل إليه الى الناس ، ويبينه للإمام مرة واحدة . فـالذي أتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالدين ليس النبي (ص) . فالتجديد في الدين غلط ، وبدعة ، وحرام .

بديهي أن « **الإستنباط المجدد** »في الدين صحيح لأنه لا يعني الإتيان بجديد . يظن بعض أن الاجتهاد إتيان بجديد ، مع أنه ليس كذلك . الإجتهاد يعني حسن الإستنباط . قد يستنبط المجتهد أمراً ما إستنباطاً مجدداً بعد أن كان قد استنبطه من قبل بصورة أخرى . ولكن القضية قضية « **استنباط** » لا قضية « **إتيان بجديد** » . يطلقون اليوم اسم « **الإبتداع** » على كل إتيان بجديد مطلقاً ، ولا يفتؤون يدافعون عن هذا الإبتداع ، وأن فلاناً مبتدع . . وما إلى ذلك .

علينا أن لا نخطىء . . إن هذا المصطلح خطأ اصلاً ، فمنذ القديم كانت البدعة تعني الإتيان بجديد وإنها « **إدخال في الدين ما ليس فيه** » . إننا نكون على خطأ إذا أطلقنا على الإستنباط الجديد اسم البدعة ، ثم نأخذ شيئاً فشيئاً باعتبار ذلك شيئاً مقبولاً .

أقول هذا لئلا يذهب بعض شبابنا مذهباً خاطئاً . فقولهم عن الإبتداع ، إذا كان في المسائل الفلسفية والفنية والشعرية والعلمية ، فلا اعتراض عليه ، وهو يعني الإتيان بجديد ، لا بمعنى الإجتهاد وإدخال ما ليس من الدين في الدين واختلاقه اختلاقاً ، فذاك من أكبر الذنوب . حتى جاء في الحديث :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« من زار مبدعاً (أو مبتدعاً) فقد خرب الدين » أي إنه يحرم على الناس مواصلة من يدخل بدعة في الدين .

و « **باهتوهم** » من مادة« **بهت** »ولها استعمالان . الأول يأتي بمعنى إلقاء الشخص في الحيرة والإرتباك . كما جاء في القرآن في قصة ابراهيم (ع) حيث يقول : ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾[٢٥] أي إنه تحير أمام منطق إبراهيم وأصيب بالدهشة . والإستعمال الثاني هو « البهتة » بمعنى الكذب والإفتراء . والبهتان العظيم يعني الكذب الكبير .

يقول الشيخ الأنصاري في هذا الحديث : إن القصد من « **إذا رأيتم أهل البدع فباهتوهم** » هو مقابلتهم بالمنطق القوي الذي يحيرهم بمثل ما قابل إبراهيم جبار زمانه وباحثه فأدهشه وحيره . قابلوا أهل البدعة بالمنطق لكي يدرك الناس أن هؤلاء من أهل البدع .

يرى بعضهم أن معنى هذا الحديث هو أنكم إذا رأيتم أهل البدع فيجوز الكذب عليهم وإلصاق أي صفة أو تهمة بهم . اي بهدف دحض أهل البدع ـ وهو هدف شريف ـ يجوز التوسل بالبهتان والكذب ، وهي وسيلة غير شريفة . عندئذ تتسع دائرة هذه المسألة . ما من عاقل ينطق بهذا ابداً . أما غير العاقل فقد

---

(٢٥) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسعى للعثور على عذر .

ما أعجب مكر النفس الأمارة ! فقد يكون مكرها من العمق بحيث أن الإنسان نفسه لا يدرك ذلك . افرض أنه يريد أن يحتفل بليلة ميلاد النبي (ص) . ولما كانت المناسبة مناسبة فرح وسرور فإنه يرتكب الفسق والفجور . ويقول : إنه يفعل ذلك احتفالاً بالمناسبة .

ثمة حكاية قديمة جداً تقول : إن رجلاً دخل خمارة وطلب من الخمار أن يعطيه أوقية من الخمر ، فقال الخمار : الخمر لا تباع بالوزن . ولكن الرجل أصر على طلبه . ولما رأى الخمار إلحاح الرجل قال له : الأوقية قليلة ولا تزيد عن كمية في قعر (القدح الصغير) . فقال : لابأس ، اعطني تلك الكمية . فقال الخمار : ولكن هذه الكمية لا تسكرك . الناس يشربون الخمر لكي يسكروا ، فالأوقية من الخمر لا تنفعك شيئاً . فقال الرجل : لا عليك ، أعطني الأوقية ، والباقي من سكر وعربدة عليّ .

وعلى ذلك فإن هناك أناس لا ينقصهم سوى العذر لكي يسكروا ويعربدوا ، كقولهم بجواز إلصاق التهم كذباً بأهل البدع ، فيتخذون من ذلك ذريعة للإفتراء على من يكنون له حقداً شخصياً ، وينسبون إليه البدعة ، ثم يروحون يتقولون عليه ويلصقون به من التهم ما لم يفعله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحَدثون يقولون : الغاية تبرر الوسيلة ، أي ليس ما يمنع من أن تكون الوسائل باطلة إذا كان الهدف نبيلاً حقاً .

والقدماء يقولون : « بـاهتوهم » أي إنهم يجيـزون لنا أن نقول ما نشاء بمنطق قوي .

والآن انظروا ما يقع على رأس الدين من بلاء !

عندما نصب معاوية أبا هريرة عاملاً له في مكة ، كان رجل قد استورد بصلا ليبيعه . ولكن سوقه كانت كاسـدة فلم يشتره أحد . فجاء الى أبي هريرة وقال له : أتريد أن تعمل عملاً تنال عليه الأجر والثواب ؟ فقال : نعم . فقال الرجل : كان قد قيل لي أن البصل في مكة نادر الوجود ، فاشتـريت بكل مـا أملك بصلاً وأتيت به الى هنا ، إلا أن أحداً لا يشتريه ، والبصل يكاد يتلف ، فلو فعلت ما يحمل الناس على شراء هذا البصل لأنقذت مؤمناً من الأفلاس ولأحييت نفساً . فوافق أبو هريرة وطلب منه أن يهيء البصل في مكان معين يوم الجمعة ليرى ما يمكن عمله . وكان التاجر قد استورد ذلك البصل من (عكا) ـ

فلمـا كان يـوم الجمعـة ، قـال أبـو هـريـرة في مجمـوع المصلين : « أيها الناس ، سمعت من حبيبي رسول الله : من أكل بصل عكة في مكة وجبت له الجنة »

ولم تمضي ساعة حتى كـان الناس قـد اشتروا كـل بصل الرجل ، وكان أبو هريرة يشعر بالرضى في قرارة نفسه لكونه قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنقذ مؤمناً من الإفلاس .

أيجوز التقول على رسول الله للتوصل الى مثل هذا الهدف ؟

ثم إن هذا المنحى خلق الكثير من الأحاديث . إن أكثر من خمسة وتسعين بالمائة ـ ولا أقول مائة بالمائة ـ من الأحاديث التي قيلت في (فضائل الأشهر مثلاً ، إنما وضعت لمصلحة قائليها ، كقولهم : إن النبي قال : خير القرى بيهق (وهي قرية بالقرب من سبزوار في إيران) . فلماذا تكون بيهق خير القرى ؟ وما علاقة رسول الله بها ليقول عنها هذا ؟ ولكن الأمر هو أن فلاناً البيهقي كان يريد أن يخلق لنفسه شيئاً من الفضل .

وأمثال هذا كثير جداً لا حصر له ولا أريد التطرق إليه . إنما المهم أن تعرفوا أن خراب الدين كان بأمثال هذه الأحاديث . مع أن سيرة الأنبياء ـ كما يقول العلّامة الطباطبائي ـ تقتضي ألا يتوسلوا بوسائل غير شريفة للوصول إلى هدف شريف .

لماذا لم تنثن سياسة علي (ع) ؟ أما عن هدفه فلا شك في شرافته ونبله . فما كان اقتراح إبن عباس وأمثاله ؟ وما كان اقتراح المغيرة بن شعبة وأمثاله ؟ إن المغيرة بن شعبة الملعون . . هذا الذين أصبح فيما بعد من أصحاب معاوية ، جاء الى الإمام علي في أول خلافته وعرض عليه مقترحات سياسية المنحى . منها أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال له : أرى ألا تقول شيئاً في الوقت الحاضر بشأن معاوية ، بل ثبته ، كما تثبت سائر الناس الجديرين بالحكم ، لكي يطمئن ، ولكن ما إن تستتب الأمور حتى تقيله .

فقال الإمام : لن أفعل هذا ، لأنني إن فعلته ـ ولو لفترة قصيرة ـ فإنه يعني أني أراه صالحاً ، حتى لوقت قصير ، ولكني لا أراه صالحاً ، وإني في هذا لا أخادع الناس ولا أمالئهم .

وعندما أدرك المغيرة أن لا أثر لما يقول ، قال : الرأي ما تراه والحق معك . قال ذلك وترك المجلس . فقال ابن عباس : قوله الأول هو ما اعتقد به ، أما اقتراحه الثاني فكان على غير ما يعتقد . ولحق المغيرة بعد ذلك بمعاوية .

لماذا لم يأخذ الإمام علي (ع) برأي المغيرة ؟ لأنه كان يريد إدامة خط الأنبياء . أما ذوو الألاعيب السياسية ومحترفوها فلا يتورعون عن الإلتجاء الى أية وسيلة كانت .

إن الذين لا يرغبون في قبول سياسة علي (ع) إنما هم كذلك ، لأن سياسته ثابتة غير قابلة للتلون والإلتواء . إن له أهدافاً وله وسائله لبلوغها . إنه لبلوغ الهدف الحق لا يتوسل بوسيلة باطلة . إلا أن ثمة أناساً ذوي أهداف حقه لايهمهم إن وصلوا إليها بطريقة باطلة .

جاءت جماعة من إحدى القبائل الى رسول الله (ص)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طالبين الدخول في الإسلام ، ولكن بثلاثة شروط :

الأول : أن يظلوا يعبدون أصنامهم سنة أخرى .

الثاني : إن الصلاة صعبة عليهم (لأنها خضوع وتذلل وهذا خلاف طبيعتهم)

الثالث : أن يقوم النبي بنفسه بتحطيم الصنم الفلاني ولا يوكل ذلك اليهم .

فقال النبي : إن الثالث من شروطكم مقبول ، أما الإثنان الآخران فلا يمكن قبولها .

إذن فالرسول لم يخطر له أن يجاري هذه القبيلة التي جاءت تسلم بعد أن عبدت الأصنام سنين طويلة ولم تعتد على الصلاة . إنه لا يجيز عبادة الأصنام إطلاقاً ، فحتى لو طلبوا ذلك ليوم واحد فقط لرفض ذلك رفضاً باتاً .

***

إن ما هو أعجب في نظري من ذلك هو هذا :
أيجوز استغلال جهل الناس وغفلتهم في سبيل هدف نبيل ؟ أيمكن أن نستفيد من أمية الناس وجهلهم وعدم معرفتهم لكي نعلي كلمة الدين ومصلحته ؟ لا أحسب المعارضين لهذه الفكرة إلا قلة .

هذا شخص جاهل ، لا علم له ولا معرفة ، وفي عالم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جهالته وعدم معرفته هذا تمكنت منه بعض المعتقدات . كأن يكون مؤمناً بحكاية (بي بي شهر بانو) فما لنا ولتصحيح عقيدته وإخراجه من غفلته ؟ إنه يعتقد أن (بي بي شهر بانو) أم الإمام السجاد ، كانت في كربلاء ، وبعد استشهاد الإمام الحسين (ع) تركب فرساً وتهرب ، فيتعقبها جند عمر بن سعد على خيولهم . فإذا كان فرس (البي بي) مسحوراً فلا بد أن تكون خيل ابن سعد مسحورة أيضاً لكي تستطيع أن تركض مائة وخمسين فرسخاً بغير توقف ، بل لعل خيل جنود ابن سعد كانت أقوى سحـراً لأنها كادت أن تدرك فرس (البي بي) عند سفح أحد الجبال ، وبدلاً من أن تقول : يا هو خذني . قالت : يا (كوه) خذني فأخذها الجبل في بطنه !

وهذا أمر عجيب أشبه بالقول المشهور : الخسن والخسين ثلاثتهم بنات معاوية(*) .

إن التاريخ والأحاديث تقول : إن أم الإمام السجاد (ع) قد توفيت في النفاس ، فلم تكن موجودة في واقعة كربلاء . ولم يرد ذكرها في أي من المقاتل ، سواء أكان اسمها(بي بي شهر بانو)

(*) يضرب هذا مثلاً على جهل من يريد تعريف الحسن والحسين (ع) فيخطىء في الأسماء وفي العدد وفي الجنس وفي الانتساب، فالخطأ فاضح في كل خطوة ، استغراقاً في الجهل ـ المترجم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو أي اسم آخر. هذه أساطير وضعها بعضهم وآمن بها بعض آخر .

يقول بعضهم : حسن ، مالنا ولهذه الأساطير ، فلتكن مختلقة ، ولكن الناس قد أمنوا عن هذا الطريق . فهل يصح هذا ؟ لقد وصل بعض الناس إلى العقيدة والإيمان عن طريق جهلهم وعدم معرفتهم ، فهل يحق لنا أن نؤيد هذا ؟

كلا . لقد سبق أن قرأنا قول الإمام أمير المؤمنين(ع) : « طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَراهِمَهُ وأَحْمى مَواسِمَهُ ، يَضَعُ مِنْ ذَلكَ حَيْثُ الحَاجَةُ إلَيْه مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ وَآذانٍ صُمٍّ وَأَلسِنةٍ بُكْمٍ » .

فقد كان النبي (ص) يستخدم في ظرف الخشونة (المواسم)ويستخدم في ظرف آخر الليونة والرحمة (المراهم) وكان يعرف موضع كل منهما ، وفي كلا الحالين كان يريد للناس الوعي واليقظة . فإذا ضرب بالسيف فلكي يوقظ الناس ، لا أن ينيمهم ، وإذا لجأ الى اللين والعطف فلكي يوقظهم أيضاً ، لا أن يتركهم في سباتهم غارقين .

جاء في الأحاديث في كتبنا وكتب أهل السنة أن إبراهيم بن رسول الله (ص) من زوجه مارية القبطية ، قد توفي وعمره ثمانية عشر شهراً ، فيتأثر الرسول الكريم ، الذي كان يحبه ، أشد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التأثر ويبكي ويقول : إنه على حرقة قلبه وذرفه الدموع على إبراهيم وحزنه الشديد عليه ، فإنه لا اعتراض له على قضاء الله . ويدين الحزن على قلوب جميع المسلمين لأن غباراً من الحزن قد غلف قلب رسول الله (ص) المبارك . ويصادف أن تكسف الشمس في ذلك اليوم ، فلا يشك المسلمون في أن ذلك دليل على تعاطف العالم الأعلى مع رسول الله (ص) ، أي إن الشمس كسفت حزناً على موت ابن رسول الله [٢٦]

وانتشر هذا في المدينة ، واتفق الناس على أن ذلك الكسوف كان بسبب حزن النبي (ص) . وقد أدى هذا الإعتقاد الى زيادة إيمان الناس وتقويته ، والناس لا تخلو عقولهم من التفكير في أمثال هذه الأمور . . ولكن ما رأي النبي نفسه ؟ إنه لا يرتضي استغلال نقاط ضعف الناس لهدايتهم ، بل يريد الإستفادة من نقاط قوتهم لذلك الهدف . إنه لا يريد أن يكون جهل الناس هو السبب في هدايتهم إلى الإيمان ، لأن القرآن يقول : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢٧]

فقد يقول قائل : حسن ، ما الذي ناله الناس من ذلك ؟ خذ

(٢٦) بديهي أن الأمر بحد ذاته ليس هناك ما يمنع من حدوثه ، فقد تنقلب الدنيا رأساً على عقب في سبيل رسول الله . ولكن الكلام على الخرافات عند الناس .

(٢٧) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

الغايات واترك المبادىء ، فقد كانت النتيجة حسنة ، ونحن لزمنا الصمت ولم نقل شيئاً .

أما النبي (ص) فلم يسكت على ذلك . جاء الى المسجد وصعد المنبر وأراح خواطر الناس ، وبين لهم أن كسوف الشمس لم يكن من أجل موت ابنه . . إن من لا يريد أن يُسْتَغَلَّ حتى سكوته ، ينبغي أن يكون هكذا ، فلماذا ؟ لأن الإسلام لا حاجة له بمثل ذلك .

ثم إن من يستغل هذه الوسائل سيجد نفسه في نهاية المطاف على خطأ ، وذلك لأنه ـ كما تمضي المقولة ـ لا يستطيع أن يبقي الناس على الجهل دائماً . قد يمكن إبقاء الناس على جهلهم في وقت واحد ، ولكن ذلك لا يكون في جميع الأوقات ، هذا فضلاً عن أن الله لا يسمح بذلك . وحتى إذا فرضنا عدم وجود شيء من هذا القبيل ، أي استغفال الناس ، فإن نبياً يريد أن يبقي دينه أبد الدهر ، يعلم أن آخرين سيأتون بعد مائة أو مائتين من السنين ويحكمون .

الحق للحق . . يجب التوسل بالحق . . أي أنني إذا علمت أن حديثاً ما ضعيف أو مختلق ، ولكنني إذا قرأته عليكم فإنكم جميعاً لن تتركوا صلاة الليل بعد ذلك ، فإن الإسلام لا يجيز لي أن أقرأ لكم ذلك الحديث . . هل يجيز لنا الإسلام أن نكذب ونلفق الأحاديث لكي نحملكم على أن تذرفوا الدموع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الحسين (ع) وإن لم يداخلكم الشك في صحة ما تسمعون وللبكاء على الحسين (ع) ثوابه ؟ أبداً . لن يسمح الإسلام بهذا مطلقاً . الإسلام لا حاجة له بالكذب . فهو فضلاً عن عدم إجازته ذلك ، فإن من مبادئه أن تعاطي الباطل يذهب بالحق . إن من خصائص الباطل أنه إذا امتزج بالحق لا يعود الحق قادراً على المكوث فيذهب . إن الحق لا ينسجم مع الباطل ولا يأتي معه في مكان واحد .

كان أحد العلماء الكبار حاضراً في أحد المجالس الحسينية ، وكان الخطيب لا يفتأ يقرأ الأخبار الكاذبة . فلم يصبر هذا العالم الجليل المجتهد ـ وأكثركم يعرفه إن ذكرت لكم اسمه ـ فقال له : ما هذا الذي تقرؤه على المنبر . فرد عليه الخطيب قائلاً : اذهب أنت الى فقهك وأصولك ، وأنا أولى بجدي وأقول ما أشاء .

أقصد أن من الموارد التي يصاب منها الدين بالأذى هو مورد عدم التمسك بمبدأ التوافق بين الغاية والوسيلة ، فللتوصل الى غاية شريفة ينبغي التوسل بوسائل شريفة أيضاً .

فعلينا ألا نكذب ، وألا نغتاب ، وألا نفتري ، ليس لمصلحتنا فحسب ، بل ينبغي ألا نفعل ذلك حتى لمصلحة الدين ، لأن ذلك خلاف الدين ، فارتكابها للدين يكون في مصلحة اللادين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾

لاحظوا سيرة النبي التبليغية التي هي أهم جوانب سيرته .

إن علينا ـ في الواقع ـ أن نتعمق في دراسة أحوال قادتنا المعصومين في الدين لكي نعرف كيف كانوا .

خلال انتصار معاوية في حربه مع علي (ع) استولى على « الشريعة » وهو نهر بالقرب من الكوفة(*)، فيسعى علي (ع) الى حل المسألة بالتفاوض ، ولكن العدو يرفض ، فيلجأ علي الى الحرب ويستولي على « الشريعة » فيقترح عليه أصحابه أن يعاملوا العدو بمثل ما عاملهم به فيقطعوا الماء عنه . فيرفض علي ذلك لأن الله جعل الماء للمسلم وللكافر ، فقطع الماء عنهم عمل لا إنساني بعيد عن المروءة والفتوة والشهامة . . لا يريد علي (ع) أن ينتصر بعمل غير انساني .

إن أمثال ذلك كثير في سيرة العظماء .

سأقص عليكم حكاية ستقولون بعد سماعها : إنكم لو كنتم مكان علي (ع) لما فعلتم ذلك :

عمرو بن العاص تمثال يتجسد فيه الدهاء والرذالة . . وفي حرب صفين نادى الإمام علي (ع) معاوية قائلاً له :

(*) كان هذا في حرب صفين ، لا في الكوفة ـ المترجم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« . . وَقَدْ دَعَوْتَ إلى الحَرْبِ ، فَدَع النّاسَ جانِباً وَاخْرُجْ إليَّ ، وَاعْفِ الفَريقَيْنِ مِنَ القِتالِ ، لِتَعْلَمَ أينا المَرينُ عَلى قَلْبِهِ وَالْمُغَطّى عَلى بَصَرِهِ . . »

كان المنطق معلوماً ، وكانت النتيجة معلومة منذ البداية أيضاً . وإذا كان عمرو بن العاص يكايد معاوية أحياناً ، قال له : هذا حق ، وأنت رجل شجاع ، فخذ سلاحك واذهب لحرب علي . . إلا أن معاوية كان يعرف شجاعة عليّ ، فرفض . وأخيراً استطاع معاوية أن يقنع عمرو بن العاصي يوماً بالخروج الى ميدان الحرب . فخرج هذا يطلب المبارزة ، وهو يتلصص لئلا يكون علي (ع) قريباً منه . فتقدم منه أمير المؤمنين بهدوء بحيث لم يعرف عمرو بن العاص أنه يقترب منه . وعندما أصبح قريباً منه لم يشأ أن يبقي عمرو بن العاصي على جهله ، فقال : أنا الإمام القريشي المؤتمن . . . الى آخر الرجز الذي عرف فيه نفسه . فارتعب عمرو وسرعان ما لوى عنان فرسه هارباً ، فتعقبه علي ، فألقى عمرو بنفسه عن الفرس وكشف عن عورته ، فلوى الإمام عنه كشحاً ورجع . . إن الذين لا يتورعون عن استعمال أية وسيلة كانت في سبيل هدفهم هم من أمثال عمرو بن العاص .

كل انسان آخر يتحين الفرصة السانحة لتوجيه ضربة تقضي على عدوه . ولكن علياً (ع) لم يكن ذلك الإنسان الذي يمكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يستغل مثل تلك الفرصة حتى لقتل عدو ومثل عمرو بن العاص . إن من يتوسل بعورته للنجاة من الموت لا يمكن لعلي أن يكون نداً معه .

إننا نشاهد نظائر هذا كثيراً في سيرة النبي (ص) والأئمة الأطهار ، الذين لا يتخلون عن مكارم الأخلاق في مواجهة الأعداء . وهذا ما يدل على أن أفكار هؤلاء كانت تدور على مستوى آخر . لقد كانوا يعتبرون أنفسهم حراس الحق والحقيقة .

إن القتل في نظر الإمام الحسين (ع) لم يكن أمراً ذا بال ، فالقضية التي تهمه هي ألا يُقتل الدين ، حتى ولا أي مبدأ من مبادئه .

في صباح اليوم العاشر من محرم ، عندما قرر شمر بن ذي الجوشن ـ هذا المخلوق الذي قد لا يكون في الدنيا أكثر منه خسة ونذالة ـ أن يحادث الحسين قبل بدء الحرب ، لم يكن يدري أن الحسين (ع) كان قد فكر في ذلك فأمر بالخيام أن تقام متقاربة على شكل نصف دائرة ، وأن يحفروا خندقاً ويملأوه بالقصب الجاف وأن يشعلوه حتى لا يستطيع العدو أن يهجم من الخلف .

عندما جاء شمر ورأى ذلك أخذ يسب ويلعن . فرد عليه بعض أصحاب الحسين ، بغير السب واللعن طبعاً . وقال أحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبار الأصحاب للحسين (ع) : أجزني في أن أنهي أمره بسهم واحد . فرفض الحسين . فظن أن الحسين لا يعرف شمراً ، فقال : يا أبا عبدالله ، إن هذا هو الشمر بعينه ، فقال الحسين : أعلم ذلك . فقال : إذن لماذا لا تأذن لي ؟ فقال : لأني لا أريد أن أكون البادىء بالحرب ، وما دامت الحرب لم تشرع بعد بيننا ، فإننا فريقان مسلمان متقابلان ، فإذا لم يبدأوا هم بالحرب وإراقة الدماء ، فلن أبدأ أنا .

وهذا مبدأ منصوص عليه في القرآن :

﴿الشَّهْرُ الحَرامُ بِالشَّهْرِ الحَرامُ وَالحُرمُاتُ قصاصُ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلِيهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾

وهي الآية التي استند اليها الإمام علي (ع) في حرب صفين حيث قال : إنه لا يبدأ الحرب بموجبها ، ولكنهم إذا بدأوها فسوف يشرع بالدفاع . وهذا ما يتبعه الحسين (ع) فلا يبدأ بالحرب قبلهم .

هذه النقاط هي التي تكشف عن مقام الأئمة المعنوي وعن أسلوب تفكيرهم ، بحيث أنهم لم يكونوا يهملون أي مبدأ أخلاقي ، مهما يكن صغيراً . غير أن العدو لا يتقيد بهذه الأمور .

ويطلع النهار شيئاً فشيئاً ويستعد جيش عمر بن سعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويشكل الحسين ـ أيضاً الميمنة والميسرة والقلب ، بغير أن يهتم بكون أولئك ثلاثين ألفاً ، ولا يزيد عدد اتباعه عن إثنين وسبعين نفراً . فيولي زهيراً على الميمنة ، وحبيباً على الميسرة ، ويعطي الراية بيد أخيه العباس . ويقف وقفة الرجل حق الرجل في مقابل ثلاثين ألف جندي .

ولكن العدو الذي لا يبالي بالمبادىء ، وعمر بن سعد الذي أعماه طمعه في ملك الري ، يفعل كل ذلك لإرضاء عبيد الله بن زياد ، فيضع سهماً في كبد قوسه ويطلق بنفسه أول سهم نحو معسكر الحسين ، ثم يخاطب جنوده قائلاً : أيها الناس ، اشهدوا لي عند الأمير أني أول من أطلق سهمه . لقد كان في جيش عمر بن سعد ما لا يقل عن اربعة آلاف رامٍ ، فراحت السهام تنزل على أصحاب الحسين كالمطر . وكان حول الحسين عدد من الرماة أيضاً . وقد جاء في الكتب أنهم عقلوا إحدى ركبتيهم وراحوا يطلقون السهام بشجاعة . وكان الواحد منهم لا يسقط صريعاً إلا بعد ان يجندل عدداً من الأعداء . وقد قتل أكثر اصحاب أبي عبد الله الحسين (ع) في هذه المرحلة .

إلا أن الحسين (ع) لم يكن هو الذي بدأ الحرب !


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جواب على سؤالين

عند الكلام على أن السعي لإحقاق الحق لا يجيز التوسل بوسائل باطلة ، عرض السؤال التالي : إذن ما رأيكم في حكاية النبي داود الواردة في القرآن الكريم ؟

وقد يكون بينكم من لم يطلع على تلك الحكاية . إن ما جاء عن تلك الحكاية في القرآن هو كما في الآيات التالية : ﴿إصْبِرْ عَلى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُودَ الأَيْدِ إنَّهُ أوّابَ . . وَهَلْ أتاكَ نَبَؤُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْـرابَ . إذْ دَخَلُوا عَلى داوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بيْنَنا بالحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إلى سَواءِ الصِّراطِ . إنَّ هذا أخي لَهُ تِسْعُ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فقَالَ أكْفِلْنِيْهَا وَعَزَّني في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخِطابِ﴾[٢٨] .

هذا ما يذكره القرآن عما قاله عن المدعي ، ولا يذكر إن كان المدعى عليه قد دافع عن نفسه بشيء أم لا . أما داود :

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ وَإنّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾[٢٩] .

ثم يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ . . وَظَنَّ داوُودُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ﴾ .

يقال : إن « **الظن** » هنا بمعنى« **العلم** » . أي علم داود أن هذا كان امتحاناً له من الله ، فاستغفر ربه وأناب هذا كل ما في القرآن عن هذه الحكاية .

هنا يبرز سؤالان ، الأول : من هم هؤلاء الذين قصدوا داود ؟ هل كانوا حقاً من البشر وكانت الحكاية حقيقية ، وأن أحدهما كان يملك الكثير من النعاج والآخر القليل منها ، وأن الأول كان يريد ضم النعاج القليلة الى نعاجة الكثيرة ، فشكى الثاني الأول الى داود ، وأصدر داود حكمه ؟ أم أن هؤلاء لم يكونوا من البشر ، بل ملائكة أرسلهم الله لاختبار داود ، وأن

(٢٨) سورة ص ، الآية ٢٣ .
(٢٩) سورة ص ، الآية ٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكاية الأنعام هذه لم تكن واقعية ، ولا كان هناك أخوان يشكو أحدهما الآخر ، بل كانت تمثيلية لامتحان داود ، فكان أن تنبه داود الى ذلك فأخذ يستغفر ربه ويسترحمه . فإذا كان هؤلاء من الملائكة ، فلماذا جاءوا . . ولأي مناسبة . . وايقظوا داود من نومه ؟

هنالك بهذا الشأن روايات يرويها أهل السنة (ولا أعلم إن كانت موجودة في كتب الشيعة أم لا . ففي تفسير الميزان ، نقلاً عن مجمع البيان ، أن صاحب المجمع قد ذكر خلاصة ذلك ثم كذبه ورده . على كل حال ، إذا كانت الرواية صحيحة ، فلا فرق بين أن تكون في كتب السنة أو في كتب الشيعة . تقول بعض الروايات : إنه كان لداود عدة زوجات في بيته . وعلى أثر حدوث حادثه[٣٠] ، أرسل الله أولئك الملائكة لتمثيل ذلك الدور

(٣٠) ترد الحكاية هكذا : كان داود يتعبد في محرابه ، فظهر له الشيطان في صورة طائر جميل يقف في كوة أمامه اثناء صلاة داود . كان الطائر على درجة من الجمال بحيث أن داود قطع صلاته واتجه للإمساك بالطير ، فأخذ الطير يرواغه حتى طار ووقف على السطح ، فتبعه داود الى سطح دار الإمارة أو دار السلطنة ، وهناك اتفق أن كانت زوجة أحد الجنود تستحم عارية ، وكانت في غاية الجمال ، فسلبت لب داود وعشقها . وإذ سأل عمن تكون ، قيل له : إنها زوجة الجندي فلان الموجود على جبهات الحرب فكتب الى قائد هناك (وهذه كلها لا وجود لها في القرآن) يطلب منه أن يعهد الى ذاك الجندي بمهمة لا يرجع منها سالماً فأرسله القائد الى الخطوط الأمامية ، فقتل ، فأصبحت زوجته أرملة ، فتزوجها داود بعد إكمال عدتها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكي يفهموا داود أن مثله مثل من يملك تسعاً وتسعين نعجة ويملك صاحب له نعجة واحدة ، ومع ذلك فقد طمع في ما يملك الآخرون . وعندئذ علم داود أنه قد إرتكب إثماً ، فتاب إلى ربه وراح يستغفره ، فتاب الله عليه .

جاء في (عيون الأنباء) بخصوص المباحثات التي أجراها الإمام الرضا (ع) مع أصحاب الملل وممثلي مختلف المذاهب غير الإسلامية ، وبعض المذاهب الإسلامية ، واليهود ، والنصارى ، والزردشتيين ، وعبدة النجوم ، وبعض علماء أهل السنة ، وهو المجلس الذي أعده المأمون لهذا الغرض ، أن أحد علماء اهل السنة تقدم الى الرضا (ع) بسؤال عن رأيه حول قصة داود الواردة في القرآن بصورة إجمالية . وقص على الإمام هذه الحكاية .

فقال الإمام : سبحان الله ، كيف تنسب الى نبي من أنبياء الله هذه الحكاية ؟ كيف يكون نبياً (ص) يقف للصلاة فيشغله طائر جميل بحيث أنه يقطع صلاته ويركض خلفه كالصبيان ، مع أنه نبي وملك في الوقت نفسه ، ولا يكون أحد قريباً منه ليطلب منه اصطياد الطائر ، فيضطر الى الصعود على السطح ، فيظهر له طائر آخر بصورة إمرأة جميلة ، فيترك الطائر الأول ليغرق في عشق هذه المرأة ، فيسأل عنها وعن زوجها فيعلم أنه جندي من جنوده الذي يضحون بأنفسهم في سبيله ، فيتوسل بالحيلة لقتل ذلك الجندي لكي يبني بزوجته ؟ أليس في هذا فسق ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفجور ، وقتل نفس ، وإبطال صلاة وعشق امرأة متزوجة ؟ أي نبي هذا الذي يفعل كل هذا ؟

فسئل الإمام عن أصل الموضوع ، فقال : إن القرآن لم يذكر شيئاً من هذا ، فكيف اختلقتموه ؟ أصل القضية هكذا : في أحد الأيام ظهرت في قلب داود لمحة من الإعجاب بصحة حكمه وقضائه[٣١] ، وأن حكمه بين الناس لا يحيد قيد شعرة عن الحق . وهذه أشبه بحكاية يونس ، وحكاية آدم ، وحكايات أخرى إن ذرة من العجب تكفي لكي يسترجع الله عنايته التي كان يسبغها على عبده ، حتى يتبين له عجزه .

وهذا موجود في دعواتنا ، إذ ندعو الله قائلين : « **ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ابداً** » مهما يكن مقام الإنسان ، لا بد له من أن يدعو الله بهذا الدعاء . تقول ام سلمة : استيقظت في إحدى الليالي فلم أجد رسول الله في الفراش ، فعجبت : أين يمكن أن يكون ؟ ثم التفت وإذا به في ركن من الحجرة يتعبد ، فأصغيت اليه فسمعته يدعو ربه قائلاً : « إلهي لا تُسَلِّطْ علي عَدُوّي ، ولا تَرُدَّني الى سوءٍ اسْتَنْقَذْتَني منه . . ولا تَكِلْني الى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْن أبَداً » .

لاحظ ، هذا هو رسول الله وخاتم الأنبياء يدعو الله ألا

(٣١) حكمة داود وقضاؤه العادل كانا مضرب الأمثال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحجب عنه لطفه وعنايته حتى ولا لحظة واحدة .

عندما سمعت أم سلمة هذا الكلام أجهشت بالبكاء . فسألها النبي (ص) : ما يبكيك ؟ فقالت : يا رسول الله ، إذا كنت أنت تطلب من الله ألا يكلك الى نفسك طرفة عين ، فيا ويلي أنا . فلم يهوّن عليها رسول الله في ذلك ، بل قال : نعم هو ذاك ، إن أخي يونس قد وكله الله الى نفسه برهة وجيزة ، فحصل له ما حصل . فما الذي يحصل إذا منع الله عنايته عن أحد ؟ !

إن أتفه خاطرة (أنانية) إذا مرت بخاطر نبي ، سلبت منه عناية الله ، وسلب عناية الله منه يعني سقوطه .

قال الإمام الرضا (ع) : لقد ظهر شيء من العجب في قلب هذا النبي المقدس : أفي الدنيا قاضي أعدل مني ؟ لقد ظهرت في قلبه هذه « الأنا » ، فابتلاه الله بذلك الإمتحان وكأنه يريد أن يقول له : يا داود ، ينبغي ألا تخطر ببالك هذه « الأنا » حتى مجرد خطور .

وعندما سلب الله عنايته عن داود ، تسرع في حكمه . . ولو على التقدير . . لقد نسي أنه عندما يتقدم مدع بدعوى ، فلا ينبغي للقاضي أن يتحدث عن جانب واحد . هذا مدع يقول : إن هذا الشخص قد أخذ مالي . إنه يملك تسعاً وتسعين نعجة ويريد أن يأخذ نعجتي « الوحيدة » أيضاً . فيقع داود تحت تأثير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العواطف الإنسانية ، فلا ينتظر ليسمع الطرف الآخر الذي لا شك أنه كان لديه ما يدافع به عن نفسه ، بل يسرع للحكم قائلاً : إذا كان الأمر كذلك فإنه قد ظلمك .

وفجأة يدرك أنه قد تسرع فما هكذا يكون القضاء ، بل على القاضي أن يلزم الصمت حتى ينتهي الإثنان مما لديهما من أقوال ، وعندئذ يصدر حكمه . هنا أدرك داود خطأه ، ليس في حكمه فحسب ، بل أدرك منشأ ذلك الخطأ ، فهو قد أتاح للأنا أن تمر بخاطره ، فتلقى تلك الضربة من (الأنا) .

ليس في القرآن إشارة الى امرأة ، ولا الى « أوريا » (الجندي المزعوم) ، ولا إلى الطائر الجميل ، وما أشبه .

تلك كانت حقيقة القصة ، كما قال الإمام الرضا (ع) فكيف ظهرت تلك الحكاية في كتبنا نحن المسلمين ؟ كل ما يسعني قوله هو : ما أشد جناية اليهود ! إنهم عاثوا في الأرض فساداً ! ان من الجرائم التي ينسبها القرآن الى اليهود ـ ومازالت مستمرة ـ هي التحريف وقلب الحقائق . لعل هؤلاء من أذكى الناس في الدنيا . إنهم عنصر ذكي ومنافق ، يضع يده دائماً على الشرايين الرئيسية في المجتمع . . الشرايين الإقتصادية والشرايين الثقافية . .

لو استطاع أحد في العصر الحاضر أن يجمع أعمال هؤلاء لأسدى خدمة جليلة . بالطبع هناك من قاموا بذلك ، ولكن ليس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالقدر المطلوب . إنهم ما يزالون يقدمون بتحريف التاريخ والجغرافيا وأخبار العالم . ابحثوا اليوم عن وكالات الأنباء العالمية ، من ترى يديرها ؟ اليهود . وهي من أهم الشرايين الحساسة في العالم . ولماذا ؟ لأنهم عندئذ يستطيعون أن يسيطروا على الأخبار ، فلا يذيعون إلا ما يخدم مصالحهم . وحيثما حلوا وفي كل بلد ، يسعون الى السيطرة على تلك الشرايين الرئيسية والمطبوعات ووسائل الإعلام ، فيحرفون حيثما أمكنهم التحريف .

هذا بالإضافة الى هيمنتهم على الشرايين الإقتصادية أيضاً . ولقد كان هذا ديدنهم منذ القديم ، فالقرآن يقول :

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣٢] .

إنّ من أعمال اليهود الرئيسية منذ قديم الزمان ، قبل آلاف السنين حتى اليوم ، أن يظهروا بين كل قوم بلباسهم ، وأن يذيعوا ما يريدون من أفكار على ألسنة أولئك القوم أنفسهم ، فيضعون نواياهم ومقاصدهم على أفواه أولئك الناس ، فهم إذا أرادوا إلقاء الفتنة والإختلاف بين الشيعة والسنة مثلاً ، لا يثيرونها بأنفسهم ، بل يبحثون عن سني يحملونه على التقول على

---

(٣٢) سورة البقرة ، الآية ٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيعة واتهامهم والإفتراء عليهم . . بديهي أن الدفاع عن الحق يبقى لازماً ، فهذه الإفتراءات يجب دفعها ودحضها ، ولكنهم أحياناً يعثرون على اشخاص مثل صاحب« **الخطوط العريضة** » الذي يروح يكذب ويلفق ، فيفترون بلسان هذا على أولئك ، ويفترون بلسان ذاك على هؤلاء .

ولقد كان هذا شأنهم دائماً وما يزال . بل إنهم ملأوا توراتهم بالكذب ، بحيث أن قصص الأمم القديمة تذكرها توراتهم بصورة تختلف عما يذكرها القرآن . بل إن القرآن يذكرها بحيث يكشف تحريفهم الذي أدخلوه في التوراة .

ثم ماذا فعلوا ؟ إنهم في سعيهم لتحريف القرآن ـ لا سمح الله ـ وضعوا مجموعة من الروايات على ألسنة النبي والأئمة والصحابة بحيث تأتي مؤيدة لما في توراتهم ، ولكنهم صاغوها بصورة يصعب معها اكتشاف زيفها .

من ذلك ما سأخبركم به مما قد يثير دهشتكم . كان « **العمالقة** » قد استولوا على بيت المقدس واستوطنوه بالقوة ، وكان النبي موسى (ع) يحث بني إسرائيل على استعادته منهم . فكان بنو إسرائيل يتقاعسون ويقولون :

﴿يا مُوسى إنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً مّا دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا هَهُنا قَاعِدُونَ﴾(٣٣) .

---

(٣٣) سورة المائدة ، الآية ٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد أراق القرآن ماء وجوههم . فكلما قال لهم موسى : كونوا على شيء من الحمية لتأخذوا حقكم . قالوا : كلا . نحن لا نبرح مكاننا . إذهب أنت وربك واطردا العمالقة، وعندئذ تعال واخبرنا حتى ندخلها معك . وعاد موسى يكرر عليهم القول : ما هذا الذي تقولونه ؟ توكلوا على الله وجاهدوا في سبيله ، فإنه سوف ينصركم . لكنهم أصروا على عدم المحاربة ، فقد كانت القضية عملية .

وهكذا يشهر بهم القرآن على أنهم كانوا شعباً أعماه الطمع ، ويريدون الكسب بأقل عناء ممكن . . أو حتى مجاناً وبدون أي عناء .

يقول التاريخ إنه في حرب بدر قال المقداد للنبي (ص) : « يا رسول الله ، نحن لا نقول مثلما قال اليهود لموسى : « **اذهب انت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** » . بل نأتمر بأمرك ونطيعك . فلو أمرتنا بأن نقذف بأنفسنا في البحر لقذفنا بها فيه » .

وراح اليهود يفكرون فيما ينبغي أن يفعلوه لتأييد التوراة وتكذيب القرآن ، على أن لا يدري المسلمون بما يقومون به من تكذيب للقرآن . وضعوا حكايات عن العمالقة أشبه بالأساطير . قالوا : أتعلمون كيف كان أولئك العمالقة الذين استوطنوا بيت المقدس ؟ وبهذا أرادوا أن يجعلوا الحق بجانبهم في عدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إقـدامهم على محاربـة العمالقـة ، وأن القرآن يجـانب الحق باعتراضه عليهم . وكثير من المسلمين لم يدركوا هذا .

أراد اليهود أن يقولوا إن القرآن قد تجنى عليهم في هذا ، لأن الحالة لم تكن تحتمل الحرب ، فالعمالقة لم يكونـوا من العنصر البشري المألوف الـذي يمكن محاربتـه . قالـوا : إن أولئك العمالقة كانوا أبناء امرأة اسمها « عنق » ، وإذا جلست هذه المرأة على الأرض غطت مساحة تبلغ عشرة دونمات في عشرة دونمات . وكان « عوج » أحد ابناء هذه المرأة ، وكان إذا وقف موسى ، وكان طوله أربعين ذراعاً ، وبيده عصاه التي كانت بطول أربعين ذراعاً أيضاً ، وقفز قفزة الى ارتفاع أربعين ذراعاً ، لا يبلغ رأس عصاه الى أبعد من ركبة « عوج بن عنق » هذا :

ويقـولـون : جـاء عـدد من العمـالقـة الى صحـراء بيت المقدس ، فأرسل موسى أربعة جواسيس ليستعلموا عمـا جاء يفعل أولئك هناك . أما أولئك العمالقة فقد كان طولهم يبلغ عدة فراسخ ، وكانوا يصطادون الأسماك من البحر ويشوونها مقابل الشمس ويأكلونها . وفجأة قال أحدهم : إنني أرى شيئاً يتحرك على الأرض متسللاً (وهم جنود موسى) ومد يده وأمسك بعدد من هذه الأشياء والقاها في كم ردائه ورجع الى ملكهم ورماها أمامه ، وقال : انظر ، هؤلاء جاءوا ليأخذوا هذه الأرض منا .

فإذا كان في بيت المقدس أناس على هذه الشاكلة ، فلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معنى في طلب موسى منهم أن يأخذوا الأرضَ منهم . لقد كانوا على حق عندما قالوا : إن ذلك ليس في طوقهم ، وأن عليه هو وربه أن يذهبا لإخراج العمالقة ، لأن هؤلاء لم يكونوا بشراً عاديين .

وهكذا ، لكي يمسحوا انتقاد القرآن لليهود ، أخذوا باختلاق أمثال هذه الأساطير ، بأسلوب ذكي ، وألقوها على ألسنة المسلمين أنفسهم ، ومن ثم راح المسلمون يقصون قصة « عوج بن عنق » بأنفسهم ، مبالغين في وصف العمالقة ، بحيث يعتقد السامع أنه إذا كان الأمر كذلك ، فما هذا الذي يقوله القرآن عن اليهود ؟ !

حكاية داود لا تختلف عن هذه أيضاً . فحكاية الطائر ، وحب داود لزوجة أوريا ، والسعي في قتل أوريا ، كلها من نسيج اليهود .

بل إن إحدى روايات الحكاية تزيد في ذلك بقولها : إن أوريا لم يكن قد قتل بعد عندما جاء داود بزوجة أوريا ـ والعياذ بالله ـ الى داره وزنا بها ، وبعد انقضاء فترة من الزمن ، وبعد ان ظن داود ان كل شيء قد انتهى ، قالت له المرأة : إنها حامل ، فخشي داود أن يفتضح أمره ، فأمر بالمرأة فقتلت .

إن التوراة المحرفة تقص هذه الحكاية بهذه البذاءة والفضاحة . ثم جاءوا ووضعوا هذه الروايات على ألسنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمين أنفسهم . وهنا تتضح الخدمة الجليلة التي أداها أئمتنا ، كما يتبين من أقوال الإمام الرضا (ع) التي فضحت زيف تلك المزاعم ودحضت نسبتها الى رسول من رسل الله .

إن شيئاً من هذا لم يرد في القرآن ، سوى الذي سبق ذكره من مجيء قوم الى داود يحتكمون اليه ، فأسرع داود بإصدار حكمه بمجرد استماعه الى أقوال المدعي . ثم أدرك خطأه في هذا التسرع ، فاستغفر ربه . . تلك هي القضية ، وليس فيها كلام عن أية امرأة . هذا جانب من جوانب القضية .

أما الجانب الآخر فهو التساؤل عما إذا كان هؤلاء ملائكة أم بشراً . . . إذا كانوا من البشر فتكون القصة واقعية وإذن فلا يكون الهدف من مجيء هؤلاء إعطاء درس لداوود ، بل كانوا حقاً يريدون حل مشكلتهم . ولكن تَسَرَّعَ داوود في إصدار حكمه نبهه إلى ما وقع فيه من خطأ . الى هنا لا يكون هناك أي استغلال لوسيلة غير جائزة ولا توسل بالكذب .

أما إذا كان أولئك من الملائكة جاءوا لتنبيه داود ، فيتبادر الى الذهن السؤال التالي : إذا كان الأمر كذلك ، فكيف مثلوا ذلك الدور المصطنع لإيقاظ داود . وهذا هو السؤال الذي طرحه أحد الأخوة الحاضرين : كيف يجوز أن يأتي هذان الملكان ويمثلان دوراً لا صحة له ، على الرغم من أن هدفهما هو إيقاظ داود وتبيهه الى انحرافه ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هنا أذكر لكم ما قاله العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) (على الرغم من أن لغته ذات مستوى رفيع يصعب بيانه ببساطة) يقول العلامة : أولاً : لا يمكن التسليم بأن أولئك كانوا من الملائكة . ولكن على افتراض أنهم كانوا ملائكة ، فالتمثيل كان ملائكياً ، وتمثيل الملائكة يختلف عن ورود أشخاص في العالم المادي . . يقول العلامة الطالقاني : إن واجبنا في أن نقول الصدق وأن لا نكذب يختص بعالمنا المادي العيني . يأتي إثنان أمام داود ويقولان ما يقولان كذباً . ولكن التمثيل أمر آخر .

والتمثيل يعني أن تظهر الحقيقة بصورة أخرى ، كالرؤيا الصادقة . فكل شيء في الرؤيا تمثيل ، وبهذا المعنى لا مجال لتحميل الصدق والكذب عليه .

كيف ـ مثلاً ـ يرى رسول الله (ص) في عالم الرؤيا أن قروداً لاتني تصعد المنبر وتنزل عنه ،وأمته تحت المنبر يواجهونه ولكنهم يتراجعون القهقرى ويبتعدون عن المنبر ؟ فيستيقظ مضطرباً ويعتقد أن تلك الرؤيا تشير الى أن ضربة ستصيب الإسلام فيأتي جبرائيل ويفسر الرؤيا للرسول الكريم ، فيقول : إن تعبير هذه الرؤيا هو أن بني أمية سيتسلطون بعدك على أمتك ويجلسون على هذا المنبر نفسه ، ويتظاهرون بالإسلام ويتحدثون باسمه ، والناس متجهون نحو الإسلام ، ولكنهم في الواقع يبعدون الناس عن الإسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه رؤيا أراها الله لنبيه ، فهل هي صحيحة أم كاذبة ؟

إذا قلنا : إن الرؤيا التي يراها الناس هي كما يرونها ، أي إن الناس جالسون والقردة تصعد المنبر وتنزل منه ، قردة حقيقيون ، ولكنها في الوقت نفسه صحيحة باعتبارها صورة لحقيقة . فالقرود يمثلون بني أمية ، وجلوس الناس في مواجهة المنبر وتراجعهم القهقرى يعني المحافظة على صورة الإسلام ، ويعني في الوقت نفسه اضمحلال معنى الإسلام وحقيقته . . إذن ، فما دام ذلك قد تمثل للنبي (ص) فإنه صحيح .

أعني أن مسألة الصدق والكذب لا تطرح هنا بهذا المعنى ، لماذا ؟ لأن القضية ـ كما يقول العلامة الطباطبائي ـ هي أن ينطبق تمثيل الملائكة للنبي على حقيقة من الحقائق أو لا ينطبق ، وهو قد انطبق فعلاً ، وذلك لا يعني أن تتحقق الرؤيا في عالم الواقع كما كانت في الحلم تماماً وبدقة . وكذلك الحال في الرؤيا الصادقة التي لا تستوجب تحققها عيناً كما حصلت في المنام .

فإذا أمكن قبول هذا الإفتراض بأنهم كانوا من الملائكة ، عندئذ يكون هذا هو الجواب على من تساءل : « كيف جاز التوسل بهذه الوسيلة لإظهار الحقيقة ؟ كما أورده العلامة الطباطبائي ، وهو جواب صحيح في نظري .

ثمة سؤال آخر :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذا لم يكن يجوز ، في الاسلام اللجؤ الى الوسائل الفاسدة وغير المشروعة للوصول الى اهداف مشروعة، فكيف أجاز النبي (ص) للمسلمين أن يهاجموا قافلة لمشركي قريش كانت تمر بالقرب من المدينة قادمة من الشام ، وأباح مصادرة ما كان معها من بضائع ،حتى أن الأوروبيين وصفوا ذلك بقطع الطريق ؟

ألم يكن الهدف من ذلك مشروعاً وشريفاً ؟ إنني أتوسع في هذا السؤال فأقول : إن من الممكن أن يعتبر بعض الجهاد من هذا القبيل ، لأن الجهاد نفسه يعني قتل الناس أيضاً ، مع أن القتل بحد ذاته أمر شائن . فإذا كان كذلك ، فكيف يجيزه رسول الله ؟ فتجيبون : من أجل هدف سام وشريف . حسن . . إذن ، فإن إجازة الجهاد في الإسلام إجازة بالتوسل بوسيلة شائنة وغير مشروعة من أجل هدف مشروع ! .

هنالك أمثلة أخرى بهذا الشأن : ألسنا نقول ، وفقهنا يقول : إن الكذبة المهدئة للفتنة خير من الصدق المثير لها : إن الفقه يقول : إذا اتفق أن كذبة تكون في مصلحة المجتمع . فلا مانع منها ، كأن يكون قول الصدق في حالة معينة سبباً لهلاك نفس محترمة مؤمنة بريئة ، وإن الكذبة في هذه الحالة سوف تنجيه من الموت المحقق ، فاكذب ونج البريء . وهذه هي كذبة المصلحة . أفلا يعني هذا أنه يجوز لنا أن نستغل وسيلة غير مشروعة لتحقيق هدف مشروع ؟ !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجواب :

في بعض الحالات حتى الوسيلة لا تكون غير مشروعة . ففي الجهاد والمال والثروة ، تكون القضية هكذا : إن من الخطأ التصور بأن الإنسان ما إن يصير (إنساناً بايولوجياً) حتى يصبح ماله ونفسه محترمين ، وإنه يكون كذلك لمجرد كونه إنساناً ، مهما يكن الظرف والواقع الذي يعيش فيه . **هذا الإتجاه في التفكير اتجاه غربي** ، وهو يرى أن كل إنسان بايولوجي ، أي له يدان وأذنان وأظافر عريضة وقامة معتدلة ويمشي على قدمين وغير ذلك من علائم الإنسان البايولوجي . . هو انسان .

إن معاوية ، من حيث وجهة نظر علماء الأجناس وعلم البايولوجي . . إنسان ! وكذلك أبو ذر ! فهما لا يختلفان بايولوجياً ، ولا يرقى صنف دم أبي ذر على صنف دم معاوية .

ومن الناحية البايولوجية موسى چومبي ولومومبا إنسانان على حد سواء . ولكننا عندما نقول : « **إنسان** » لانقصد ذلك الذي يصفه علم البايولوجي ، بل الحديث هو عن الإنسان من حيث المعايير الإنسانية . فهذا الإنسان قد يكون « **ضد الأنسان** » . موسى چومبي إنسان « **ضد الإنسان** » . ومعاوية إنسان « **ضد الإنسان** » . وشمر بن ذي الجوشن إنسان « **ضد الإنسان** » ، أي ضد الإنسانية .

فالمقياس هنا هو « **الإنسانية** » ، فالإنسانية ليست بأن تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسنان بالهيئة الفلانية ، إنما الإنسانية تعني الشرف . والفضيلة ، والتقوى ، والعدالة ، وطلب الحرية ، والتحرر ، والحلم ، والصبر . . هذه هي المعايير الإنسانية .

إن الإنسان البايولوجي إنسان اجتماعي بالقوة ، لابالفعل . . فإذا قام إنسان ضد الإنسانية . إذا قام ضد الحرية وضد التوحيد وضد الحق وضد الصدق وضد كل القيم الخيرة . . فإن هذا الإنسان لا احترام له منذ البداية ، ولا يحترم دمه ، ولا يحترم ماله .

إننا مبدئياً لا نقول : إنه يحترم في ماله وفي دمه ، وأن الإعتداء على ماله ودمه عمل قبيح ، ولكننا في سبيل هدف شريف نرتكب هذا العمل القبيح . . كلا، ليس الأمر كذلك ، إنه ليس قبيحاً أصلاً .

ومسألة القصاص ، وإنزال عقاب القتل بالقاتل ، لا يعني أننا نرتكب عملاً قبيحاً ، وهو قتل القاتل ، ونأسف لذلك .

كلا ، إذا بلغ إنسان حداً فراح يقتل الناس بغير ذنب ، فإنه يكون قد فقد ما يستحق من احترام . إن اليد التي تمتد عن قصد وتعمد للخيانة ، تكون قد أضاعت احترامها . وإنه لجواب رائع ذلك الذي يرد به السيد المرتضى على أبي العلاء المعري الذي يقول :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(يد بخمسمائة عسجد وديت)
ما بالها قطعت في ربع دينار

إنه يشير الى قانون الإسلام الذي يأمر بقطع يد السارق ، فيقول : كيف أن اليد التي قد تبلغ ديتها خمسمائة دينار ، تقطع من أجل ربع دينار ؟

فيرد عليه السيد المرتضى بقوله :

عزُّ الأمانة أغلاها ، وأوكسها
ذل الخيانة ، فاسمع حكمة الباري

فهذه اليد التي هي عضو من أعضاء البدن ليست محترمة بحد ذاتها ، بل يؤكد احترامها وتزداد قيمتها على قدر تمسكها بالأمانة ، فالإحترام ليس لليد ، بل للأمانة والشرف . فعزة الأمانة هي التي ترفع من قيمة الإنسان . فمن المنطقي أن تتدنى قيمة الإنسان ، وقيمة أعضائه بالتالي ، إذا رضي بذل الخيانة وامتدت تلك اليد للسرقة .

فالإنسانية ترفع قيمة الدم والمال ، والفسق والغيبة وقتل الناس والظلم والعدوان على حقوق الناس وعلى الحريات تنزل من هذه القيم حتى تبلغ أدنى مستوى لها .

أما كفار قريش الذين لم يكن لهم عمل خلال ثلاث عشرة سنة سوى الأخذ بخناق الحقيقة ، وكبت صوت رسول الله لكي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يصل نداء الحقيقة الى أسماع الناس ، لأنه كان على الضد من مصالحهم . وسوى تعذيب المسلمين وإذاقتهم ألوان الشقاء حتى الموت ، على رغم علمهم بأنهم كانوا يقولون الحق ، فإنهم لم يتوانوا عن إيذائهم بأقسى ما يستطيعون . . أبعد هذا كله نقول : إن أموالهم محترمة ؟ !

ثم من أين لهم هذه الأموال والتجارة ؟ في نص القرآن إن عدداً من الربويين في مكة كانوا قد جمعوا أموالاً من الربا واللصوصية . لذلك فلا يصح أن نقول : إن النبي (ص) أجاز الإستيلاء على أموال كانت محترمة لتحقيق هدف شريف . فحتى لو لم يكن هدفه شريفاً فإن المال نفسه لم يكن محترماً .

والقضية ـ في مواضع أخرى ـ ليست هكذا . . بل هي قضية الأهم فالمهم التي يقول بها الفقهاء في باب المقدمة الواجبة . ولا بد لي هنا أن أدلي بشيء من التوضيح :

لابد أنكم قد أدركتم مما سبق أن قلناه من ان الهدف لا يبيح الوسيلة . ويتلخص قول العلامة الطباطبائي في أن العمل في سبيل الإيمان ، والمحافظة على إيمان الناس ، وتقوية إيمان الناس ، ودعوة الناس الى طريق الحق والإسلام ، يتعارض واتخاذ الباطل وسيلة الى ذلك . فما معنى هذا ؟

هذا يعني أن الإيمان والدعوة الى طريق الحق ، من الحقائق التي لا تتقبل وسائل باطلة وفاسدة . فكلامنا كان يدور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على هذا الموضوع ، لا غيره .

ان الآية القرآنية التي يستندون إليها في ذلك ، وهي آية عتاب للنبي ، هي :

﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيهِمْ شَيئاً قليلاً إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَياةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾[٣٤] .

فماذا كان ركون النبي (ص) إليهم ؟ تقول التفاسير : إن الركون لم يكن بالمعنى المعروف ، ولعله كان مجرد خاطر ؟ خطر للنبي (ص) ولكنه أمر بغير ذلك . فما هو هذا الخاطر ؟ لقد قالوا : يا رسول الله ! أجزنا أن نسلم على أن لا نصلي سنة ، أو لا تتعرض لأصنامنا سنة . لم يوافق النبي على ذلك ، ولكن لعله خطر له أنه لكي يهتدي هؤلاء يحتاج الأمر الى بعض المماشاة . . أن يداهن أو يساوم أو يماشي هؤلاء في سبيل الله ، كالذي طلبوه بعد ذلك من علي (ع) نحو معاوية ، إذ كانوا يقولون : عليك أن تجاري معاوية في سبيل الله ، إلا أن علياً رفض ذلك ، لأن طبيعة الإيمان لا تنسجم مع هذه المداهنة أو المماشاة .

ولو كانت القضية لا تتعلق بالإيمان والعقيدة ، بل تتعلق بالحقوق الإجتماعية والفردية ، فلربما كان بالإمكان التوسل

---

(٣٤) سورة الإسراء ، الآيتان ٧٤ و ٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأمثال هذه الوسائل الى حد ما . فمثلاً ، أنا أريد أن أنقذ حياة شخص من الأشخاص ، فلكي أنقذه لا أرى ما يمنع من أن التجيء الى الكذب ، حتى لو انكشف فيما بعد أني كذبت لإنقاذ حياة إنسان . ولكني إذا كنت أدعو الناس الى الله ، فلجأت الى الكذب والى برهان كاذب لا يستند الى الحقيقة ، ثم انكشف أن الدليل الذي أوردته والطريق الذي سلكته في استمالة الناس نحو الله كان كذباً لا أساس له من الصحة ، وأني بالكذب حملت الناس على الإيمان . . فإن ذلك ينزل بالإيمان ضربة لا التئام لها .

إن حديثنا يتناول الدعوة للإسلام ، ولذلك فإن القول بأنك في سعيك لتقوية الإسلام والإيمان لك أن تلصق بأهل البدعة أية تهمة تشاء وان تتقول عليهم بأي إفتراء إنما هو قول باطل . إن الذين يقولون هذا إنما يريدون أن يرفعوا ضوءاً أخضراً، كما يقولون ، بحجة أن الهدف هو الدين ، وأنه إذا كان ذلك هو الهدف ، فإن الإسلام يعطي الضوء الأخضر لإلصاق كل فرية بأعداء الإسلام .

كلا ، لن يجيز الإسلام اللجوء الى الكذب بأي شكل من الأشكال في سبيل الدعوة للدين

المرحوم الحاج ميرزا حسين النوري ـ أعلى الله مقامه ـ من كبار المحدثين الشيعة لم يمضي على زمانه أكثر من ٧٣ سنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضع المرحوم كتيباً قرأته من أوله الى آخره وما زلت واقعاً تحت تأثيره وداعية له . إنه أشبه بدستور لرجال المنبر وانتقاد للذين لا يلتزمون شروط التصدي للدعوة للدين . عنوان الكتاب (اللؤلؤ والمرجان) وهو مكتوب بالفارسية . كان المرحوم يرى أن بعض رجال المنبر يهملون التقيد بأمرين واجبين على من يصعد المنبر :

الأول هو الصدق ، فهم بحجة كون هدفهم نبيلاً ومقدساً ، لا يتورعون عن ذكر أي شيء وقراءة حتى الروايات الضعيفة السند .

والثاني هو قولهم : إننا مادام هدفنا هو إبكاء الناس على الحسين (ع) وهو هدف مقدس ودعوة الى الإيمان ، فلا يهم بعد ذلك كيف نحقق ذلك .

وعلى هذا فهو يكرس نصف الكتاب للكلام على الصدق والكذب ، يثبت فيه أن الإسلام لا يجيز على الإطلاق حتى ذكر الأحاديث الضعيفة السند بحجة إعلاء شأن الدين ، فكيف بالحديث الكاذب .

ثم يتناول في النصف الآخر من كتابه موضوع الإخلاص ، ويقول : إن خلوص النية شرط واجب في الدعوة للدين ولإبكاء الناس على الحسين (ع) (وهذا جزء مما كنت أريد ذكره فيما يتعلق بالسيرة النبوية) ثم يعالج قضايا الأجور التي يتقاضاها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجال المنبر ، وقضايا أخرى .

إن ما بحثته أنا هنا تحت عنوان « **استخدام الوسيلة** » يبحثه المرحوم تحت عنوان آخر ، ويورد أحياناً بعض الحوادث الطريفة . من ذلك قوله : « أرسل لي أحد علماء الهند رسالة يقول فيها : إنه يلاحظ مجيء بعض الاشخاص الى بلده يصعدون المنبر ويقولون ما لا أصل له ولا صحة ، ويذيعون أحاديث ضعيفة السند أو باطلة . ويطلب مني ، باعتباري في المركز ، أن أحول بينهم وبين قراءة الأحاديث الكاذبة . فيقول : كتبت له في الجواب : هذا الكذب الذي تقول أنه عندكم ، هو أكثر شيوعاً في المركز منه في الأماكن الأخرى .

ثم يضيف : انظروا الى أي حد وصل الأمر ، بحيث أن أحد علماء يزد قال : كنا مسافرين عن طريق الصحراء قاصدين زيارة مشهد الإمام الرضا (ع) في خراسان وصادف أن كنا في شهر محرم الحرام ، وفي ليلة عاشوراء وصلنا الى قرية ، وكنا آسفين لأننا لم نصل الى إحدى المدن حيث كان يمكن أن نحضر مجلساً من مجالس العزاء الحسينية . ثم سألنا في القرية فقالوا : هنالك تكية تقام فيه مراسم العزاء خلال الأيام العشرة الأولى من محرم . فحضرنا المجلس ، واذا بقارىء ريفي صعد المنبر .

يقول الراوي : عندما أخذ القارىء مجلسه فوق المنبر ، جاءه خادم التكية ورمى في حجره كمية من الأحجار ، فعجبنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتساءلنا عن السبب . وأخذ القارىء يقرأ على الحسين ، إلا أن أحداً لم يبك . فأمر بإطفاء المصابيح فأطفئت . وعندئذ أخذ يقذف بالأحجار على رؤوس الناس ، وتعالى الصراخ والبكاء « آخ رأسي ! » من كل جانب

وبعد انتهاء المجلس قلت للقارىء أو الواعظ : ما هذا الذي فعلت ؟ هذه جناية عقابها الدية ، فلماذا فعلت ما فعلت ؟ فقال : هؤلاء الناس لا يبكون على الحسين إلا بهذه الوسيلة ، فعلي أن انتزع منهم الدموع بأية وسيلة كانت .

يقول : فقلت له : هذا خطأ . كيف تقول بأية وسيلة كانت ؟ ألا تحرق مصائب الحسين القلوب ؟ فإذا كان للمرء قلب ، وإذا كان حب الحسين في قلبه . وكان من شيعة الحسين حقاً ، فإنك إذا قرأت قراءة صحيحة فإنه لا شك سيبكي . أما إذا لم يكن له قلب ، ولم يكن يحب الحسين ، ولا يعرف بمصيبته ، فعدم بكائه أفضل . فما هذه الوسيلة التي تستخدمها ؟

إذن فهذا الذي قلته عن عدم جواز استخدام أي وسيلة كانت في سبيل الحق ، كان قصدي منه الدعوة الى الإيمان ، وهو ـ أيضاً ـ قصد ناقل هذه الحكاية .

أي إنه لكي ندعو للحق ، وفي سبيل حمل الناس على العبور من اللا إيمان الى الإيمان ، لا يمكن قبول حتى الأهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمهم ، لأن لهـذه المسـألـة مـوضعـاً آخر ، في المسـائـل الإجتمـاعية ، بمـا فيها قضـايا العبـادات الفرديـة مثل إقـامـة الصلاة ، والأرض المغتصبة ، وأمثال ذلك . أما في باب الدعوة للإسلام ونشر مبادئه وتبليغ رسالته فلا يجوز التوسل حتى بذرة من الباطل .

ثم يذكر صاحب كتاب (اللؤلؤ والمرجان) بعض آيات من القرآن ، مثل « ﴿إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾[٣٥] . أي إن الله يؤيد رسله إذا ساروا في طريق الحق والصـدق ، والله هو الـذي يتكفل بالتأثير . وهذا ما فعله الأنبياء ونالوا النتائج التي ابتغوها . إذن فنحن في مجال استخدام الـوسيلة في سبيل دعـوة الناس الى الدين والإيمان ، لا يحق لنا أن نتذرع بأية وسيلة مهما تكن ، فإذا فعلنا فإن النتيجة تكون معكوسة . فمن يظن أن له أن يتوسل بكل وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية يكون على خطأ مبين .

إننـا لسنا فقـراء في مصادرنـا . قد يجـوز لمن يفتقر الى المصادر أن يتوسل بكل وسيلة . . أما نحن فعلى درجة من الغنى في المصادر بحيث أن مجرد الظن بأننا فقراء فيها يعتبر تجنياً على الواقع . إننا نريد أن نبكي الناس على الحسين (ع) . . إن في حـادثة عـاشوراء من المـلاحم البطوليـة والعواطف الجيـاشـة

(٣٥) سورة المؤمن ، الآية ٥١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والإنفعالات النفسية ما يحملنا على البكاء مدراراً حتى لو كانت في قلب ذرة واحدة فقط من الإيمان : « **إن للحسين محبة مكنونة في قلوب المؤمنين** » ، « **أنا قتيل العبرة** »[٣٦] .

هنالك بضعة أبيات من الشعر لأحد أصحاب الإمام الصادق (ع) ، وكنت أحفظها وغيرها في بدايات انخراطي في هذا المسلك . أتذكر أن هذه الأبيات قد وردت في كتاب « نفثة المصدور » للمحدث القمي ، الذي يقول : كان أبو هارون المكفوف[٣٧] شاعراً قديراً وله قصائد في رثاء الإمام أبي عبدالله الحسين (ع) .

يقول الشاعر : كنت يوماً في حضرة الإمام الصادق (ع) فطلب مني أن أقرأ بعض شعري في رثاء جده الحسين . فصدعت بالأمر ، بعد أن استدعى النسوة من أهل بيته فجلسن خلف ستارة في المجلس . وبدأ الشاعر يقرأ قصيدة لعله كان قد نظمها حديثاً . وعلى الرغم من أنه لم يقرأ إلا خمسة أبيات فقط إلا أن البكاء والنحيب ارتفع من المجلس وراحت الدموع تنهمر من عيني الإمام الصادق (ع) ويهتز كتفاه من أثر البكاء . ولعل الإمام هو الذي طلب من الشاعر ان يكتفي بما قرأ ، لإشتداد بكاء كل من كان في الدار .

---

(٣٦) البحار الجديد ، ج ٤٤ ، ص ٢٧٩ و ٢٨٥ .

(٣٧) لعله كان كفيف البصر فلقب بالمكفوف .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسلوب الدعوة في سيرة النبي (ص)

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إنّا أَرْسَلْناكَ شاهداً وَمُبشِّراً وَنذِيراً وَداعِياً الى الله بِإذْنِهِ وَسِراجَاً مُنيراً﴾[٣٨] .

من الدروس التي ينبغي أن نتعلمها من سيرة رسول الله (ص) هو أسلوب دعوته الى الحق وإبلاغه رسالة الله الى الناس . قد يبدو ذلك أول ما يبدو وفي نظرٍ بعض الناس أمراً صغيراً ، فقد لا يرى أي اختلاف بين أن يسعى إنسان لدعوة الناس الى الله . . الى الخالق ، ويبلغهم رسالته ، وبين إبلاغهم أية دعوة أو رسالة عادية .

فلنرى أولاً ما يقوله القرآن بهذا الشأن ، وكيف أنه يعتبر هذا

(٣٨) سورة الأحزاب ، الآيتان ٤٥ و٤٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمل مهماً وصعباً وشاقاً ، ثم أبين لكم بعد ذلك الفرق بين هذه الدعوة وغيرها من سائر الدعوات .

يشير القرآن الى هذا الموضوع بشأن موسى بن عمران (على نبينا وآله وعليه السلام) في سورة طه المباركة (والظاهر أنه عن موضوع آخر) : يتحرك موسى للعودة الى مصر . تصاب زوجته بآلام المخاض ، فيذهب موسى للبحث عن نار يدفىء بها زوجته ، وفي الوادي المقدس يواجه الوحي الإلهي للمرة الأولى ، ويؤمر بحمل الرسالة الى فرعون وأتباعه .

إذن فقد وصل موسى الى مرحلة اللياقة للنبوة ، ولم يعد إنساناً عادياً . وعندما يطلب منه أن يحمل الدعوة الى فرعون يحس كأن حملاً ثقيلاً جداً قد وضع على كاهله ، فيطلب من الله بعض الطلبات : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾[٣٩] .

وخلاصة معنى « **شرح الصدر** » هي السعة الروحية والتحمل الخارق للعادة ، ثم الطلب من الله أن يسهل عليه مهمته ، لأنه يحس بثقلها . وبعد ذلك يطلب من الله قائلاً :

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾

يظن بعضهم أنه كان على شيء من حصر اللسان وثقله ، أو

---

(٣٩) سورة طه ، الآيتان ٢٥ و ٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنه كانت به لثغة ، حتى أنهم قالوا : إنـه في صغره قـرب منه فـرعون الجمـر ليختبره ، فتنـاول موسى جمـرة ووضعها على لسانه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يستطيع أن يلفظ حرف السين إلا ثاء . وهذا ما لا أرى له أساساً من الصحة .

إن ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ هو ما يكرره القرآن من أن الرسالة يجب أن تبلغ بلسان مبين ونطق واضح وفكر جلي وآراء هادية ، وذلك بدلالة قوله بعد ذلك « يَفْقَهُوا قَـوْلِي » أي حتى يدركوا ما أرسلتني إليهم فيه ويتضح لهم كل شيء .

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أخي أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ .

وفي مكان آخر من القرآن يوجه الخطاب الى رسول الله ، لا بصيغة سؤال بل بصيغة بيان إلهي عن أمر متحقق ، فيقول في سورة الإنشراح المباركة : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

كان موسى هو الذي طلب ذلك من الله ، ولكن هنا يرد ذكر ذلك كفعل ماض متحقق ، وهو أنه قد شرح له صدره . وهذا يعني أن المهمة تتطلب ذلك .

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ .

والمقصود هو الحمل الثقيل . ﴿الذَّي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

هنالك موسى طلب من الله أن يسهل عليه مهمته الصعبة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا يقول الله تعالى انه أزاح عن رسوله ذلك الحمل الثقيل الذي كاد أن يقصم ظهره ، ثقل حمل الرسالة وإبلاغها للناس وجذبهم نحو طريق الله . وهو عمل لا شك صعب بحيث أن القرآن يشبهه بالحمل الذي ينقض الظهر .

وتعبير ﴿انقض﴾يشير الى أننا إذا وضعنا ثقلاً كبيراً على سقف ـ مثلاً ـ بحيث لا يتحمله فإنه (يفرقع) أو (يطقطق) نذيراً بقرب تحطمه ، فالقرآن يريد أن يقول ان الحمل من الثقل بحيث أن فقرات ظهرك كادت أن تتحطم .

﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرِكَ﴾

وهذا ناتج عن تأثير العمل .

﴿فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، إنّ مَعَ العُسْر يُسْراً ، فإذا فَرَغْتَ فَانْصبْ وَالى رَبِّك فَارْغَبْ﴾ .

وإنه لعمل صعب ، ولكن إذا تحمل الإنسان الصعاب فإن مع الصعوبة سهولة ، أي إن السهولة كافية في الصعوبة . في داخل كل صعوبة بذرة السهولة .

فعليك أن تصبر وتثابر﴿ فإنَّ مِعَ العسر يسراً ﴾ويؤكد ذلك بالتكرار ، حتى أن النبي أحس أن مع كل صعوبة واحدة سهولتين ، فتفتحت أساريره ، وقال : وما تفعل صعوبة واحدة أمام سهولتين ! إن الله يعدني باليسر والسهولة مع هذه الصعوبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ .

فإذا قارنا هذه الآيات بالتي نزلت بحق موسى ، ثم رجعنا الى الأخبار المتواترة عند الشيعة والسنة والتي جاء فيها أن رسول الله (ص) يخاطب علياً بقوله « **أنت مني بمنزلة هارون من موسى** »(وكان هارون معاوناً وشريكاً لموسى في عمله)نلاحظ أن تفاسير الشيعة ، ، تؤيدها الروايات ، تقول : إن آية ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ تخص مقام علي (ع) وهو كذلك ، إلا أن هذا ليس موضوع بحثنا .

وآية أخرى لها أهمية كبيرة تبين ثقل حمل الرسالة والدعوة الى الله ، وهي في سورة « المزمل » المباركة التي نزلت ـ كما تعلمون ـ في أوائل بعثة الرسول (ص) ، وهي ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾

فما هو هذا الكلام الثقيل الذي سيلقيه الله على رسوله ؟ !

إن الكلام من حيث كونه كلاماً لا يكون ثقيلاً أو خفيفاً ، وإنما يكون ثقل الكلام أو خفته في محتواه ، وما يطلب فيه يمكن أن يكون ثقيلاً حمله وصعباً أداؤه أو خفيفاً وسهلاً . إننا نستعمل هذه الإستعارة في كلامنا ـ أيضاً ـ فنقول : وقع كلام فلان على فلان وقعاً ثقيلاً ، أو : إن فلاناً يستثقل أداء الواجب .

فما معنى ثقل أداء الواجب ؟ إن حمل رسالة من شخص

الى شخص لا يكون واجباً ثقيلاً . ليس هذا هو الموضوع ، وإنما هو المحتوى المطلوب من أداء ذلك الواجب . فعند ما يكون القيام بذلك الواجب صعباً نقول : إنه ثقيل . لذلك يقول القرآن : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وما هذا القول سوى الدعوة . . وسوى هداية الناس الى الصراط المستقيم .

وقد يسأل سائل : لم يعتبر القرآن أمر الدعوة وإبلاغ الرسالة عملاً ثقيلاً ؟

ثمة قضايا ندركها جيداً ، وندرك أهميتها لمعرفتنا الحقة بها وبما أننا ندرك قيمتها فإننا لا بد أن نعرفها بما هي ، مثل الإفتاء مثلاً . من حسن الحظ أن الغالبية العظمى من الناس ، بما يقدر بحوالي ٩٥٪ منهم ، يدركون أن الإفتاء صعب ، وأنه عمل على أرفع مستوى ، فلا الأفراد يجرأون على الزعم العاجل بأن لهم تلك القدرة ، ولا الناس يصدقون كل من رغب في أن يدعي لنفسه هذا الإدعاء . إن المجتمع قد أدرك أن الإفتاء أمر صعب وعلى مستوى رفيع . فكيف بأمر دعوة الناس الى الله والى الإيمان وهدايتهم وسوقهم وإرشادهم الى طريق الحق ؟ ! إن الدعوة لا تشبه سوق الناس نحو الطعام . .

هنالك مدارس تحرك الناس ، وتحركهم جيداً ، ولكن الى أين ؟ الى المعلف ، الى منافعهم ، أو إذا شئت بلهجة أخف ، فإلى نيل حقوقهم ، وهي بالطبع جزء من منافعهم ، ونحن معهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى هذا الحد موافقون .

إن نبينا (ص) أيضاً يسوق الناس الى إحقاق حقوقهم ، وهذا السوق جزء من برنامج الأنبياء ، ولكن هذه حركة صغيرة يقول فيها الأنبياء للناس : « أيها المحرومون ، تقدموا لنيل حقوقكم . أيها المظلومون ، اذهبوا وخذوا حقوقكم من ظالميكم » . أجل إنها حركة ضمن حركات الأنبياء ، ولكنها أصغرها شأناً ، وهي حركة تؤيد مصلحة الإنسان وتؤيد ميوله الطبيعية : « أيها الكادحون اتحدوا وخذوا حقكم من الجبارين » ولا شك أن التحرك في هذا المسير عمل لا نقول : إنه صغير ، ولكن في مسيرة الأنبياء يكون هذا التحرك من أعمالهم الصغيرة التي يؤدونها » ويؤدونها خيراً من غيرهم .

أما الحركة العظيمة التي يقوم بها الأنبياء فهي الحركة التي تسوق الإنسان من منزل النفس نحو الله . إنها حركة تحرر الإنسان من إسار نفسه وتوصله الى الله . أي إنها حركة تحمل الإنسان على أن يثور في داخله ضد نفسه ، وهذا هوالمقصود بالكلام الثقيل ، لا حملك أنت المظلوم على الثورة عليّ أنا الظالم إنه كلام قد يثيرني أنا الظالم على نفسي ، فأتوب وأعود الى الحق . إنه كلام يحرك الإنسان من الأنانية وحب الذات ومنافعها الى الحق وحب الحق .

هذا هو العمل الصعب ، وإن الذي يستطيع أن ينزل الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميدان المنافسة مع الأنبياء يكون قميناً بأن يحسب له حساب . إننا نسمع أن الزعيم الفلاني قد حرك الناس وأثارهم لكي يطمئنوا على مصالحهم باسم نيل حقوقهم . ولكن إذا أخذنا الأرفع من ذلك بنظر الإعتبار ، فنقول : إن التحرك لانتزاع حقوق الناس من ظالميهم ، إنما هو عمل مقدس ، إلا أنه مع ذلك عمل صغير عند الأنبياء .

إن عمل الأنبياء ، الذي ينبغي على كل داع لله ، وعلى كل مبلغ لرسالته أن يتابعه ، أن يحذو حذو رسول الله (ص) وحذو أمير المؤمنين علي (ع) ، ذلك العمل الصعب ، هو تحريك الناس من ذواتهم ، من الأنانية ، من حب الذات وحب مصالحها ، نحو حب الله وحب الحق ، وإنه لعمل صعب وشاق .

إننا في الواقع ندرك الى حد ما قيم بعض الأشياء والشؤون في مظانها ، وندركها على حقيقتها كما ينبغي لنا . ولكن علينا أن نعترف أن تقويمنا لبعض الأمور الأخرى بحد ذاتها ليس تقويماً كاملاً ، وأننا لم ندركها حق الإدراك[٤٠] .

---

(٤٠) لقد كان من باب المصادفة أن تكون كلمتي هذه الليلة تخص السيرة النبوية وكيفية الإقتداء بها في موضوع الدعوة والتبليغ . وكذلك كان حضور العالم والخطيب المحترم فلسفي الذي حق علينا أن نقول : إنه على رأس أصحاب هذا الفن وممن خدم هذا البلد خدمات جلى إن قيمة أمثال هذا الشخص ، =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على كل حال ، يضع القرآن هذا الموضوع على مستوى عال . هنالك مسائل عديدة بين الله ورسوله لم تطرح لعموم الناس ، فلا يعرفها غيرهما . أما لماذا يعيد الله طرح هذا الموضوع مع نبيه ، ويضعه في متناول الجميع ؟ السبب هو لأنه موضوع يخص الجميع . إنه دعوة موجهة لعموم الناس ، إنه إبلاغ لرسالة فهو ليس امراً سهلاً يسيراً. إن ما لم يطرح على العموم لا علاقة له بعامة الناس . ولكن عندما تطرح قضية أمام الجميع فذاك إشارة الى أنها قضية يجب على الأمة تعلمها .

إن أول ما نتعلمه من القرآن في أمر الدعوة وإيصالها هو أول شرط من شروطها وهو « شرح الصدر » ، أي أن يكون الرسول واسع الصدر عظيم التحمل .

قد تسأل : لماذا يكون تبليغ الرسالة صعباً الى هذا الحد ، وليس الأمر هكذا في تبليغ الرسائل الأخرى ؟ إنها رسالة واحدة وتبليغ واحد ويتم حسّياً ، وهذا عمل سهل ، كالتبليغ الذي

= ممن تحملوا الكثير الكثير ليبلغوا مرتبة الخطيب المبلغ القدير ، لا تقدر بميزان .

يقول الشاعر :

يرى الناس دهناً في الزجاجة صافياً
ولم تدر ما يجري على رأس سمسم

فالناس تستمع الى خطبه النظيفة الطاهرة ، ولكنها لا تعلم ما جرى عليه وما تحمله حتى وصل إليهم دهنه النقي هذا .

يوصله مأمور العدلية الى شخص معين باعتباره متهماً ، ويكون تبليغاً حسياً يداً بيد . إنك إن كنت موظفاً بإبلاغ رسالة وحسب ، إما بصورة إخطار ، أو عياناً أو سماعاً ، فليس في ذلك صعوبة ما ، إذ من الممكن العثور على المطلوب وإبلاغه بما يـراد ، بإراءته البلاغ أو بإسماعه إياه

ولكن أتحسب أن الرسالة التي يحملها الأنبياء تقتصر على مجرد إيصالها إلى آذان الناس ، أو ان مهمتهم تنتهي بإراءتهم الرسالة للناس ؟ كلا . إن الأرفع من الإبلاغ الحسي ، للعين أو للأذن هو الإبلاغ للعقل . . للفكر . . وهذا يعني أن الرسالـة يجب أن تبين بحيث تنفذ الى العقل ، إذ لا يكفي ذلك البلاغ الذي لا يتعدى الرؤية بالعين أو السماع بالأذن ، الى النفوذ الى العقل .

إن مـا يوصـل الرسـالـة الى العقـل ليس الصـوت ، ولا الشكل ، ولا الكتابة . إنه شيء آخر . فما هو ؟ إن ابواب العقل مغلقة ، ولا تفتح الا بمفتاح الدليل والبرهان والإستدلال ، او بتعبير القرآن ، بالحكمة والحكمة المركبة . إن العقل لا يتقبل الرسالة مجردة ، والأنبياء يريـدون إيصال رسـالتهم الى العقل أولاً .

إذا كنتم ترون أن المسيحية قـائمة على العكس من هـذا الكلام وتقول **«الإيمـان لا شأن لـه بالعقـل» فإنمـا ذلك لأن مـا ترون**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو المسيحية المحرفة ، فالمسيح الحق لا يمكن أن يتفوه بهذا . إنه لم يقل بالتثليث ، ولكن الذي قالوا به ، بعد أن رأوا أن العقل قد غلّق أبوابه بوجه التثليث ، عادوا فقالوا : « إن حساب **الإيمان غير حساب العقل . إن منطقة الإيمان محرم على العقل دخولها ، وممنوع عليه التدخل في شؤونها** »وهذا من التحريفات في المسيحية ، ولم يقل به أي نبي من الأنبياء .

والقرآن ، الذي يبين ما قاله جميع الأنبياء بشيء من الإضافة والإفاضة ، يقول : ﴿**أُدْعُ الى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنةِ** »[٤١] . فأول ما يبدأ بالحكمة . ويقول : ﴿**يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً**﴾ بصرف النظر عن معنى الشاهد الذي ليس مدار بحثنا الآن .

بشر الناس بما ينتظرهم إن هم ساروا في هذا الطريق وشوقهم الى ذلك . وأنذرهم . والإنذار لا يعني التخويف ، بل يعني إشعارهم بالخطر . قد يخيف شخص شخصاً بصوت مرعب ، ولكن الإنذار ليس هذا ، إنما هو بعث الرهبة من خطر محتمل لتجنبه . كأن يسير امرؤ في طريق ليصل الى هدف معين ، فيأتي من يشعره بما في ذلك الطريق من خطر .

في أول بعثة النبي (ص) أتى الى سفح (الصفا) وصرخ

---

(٤١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منادياً : « يا صباحاً » فقد كانت هذه طريقة إعلان وجود خطر . فهرع الناس الى حيث وقف وسألوه : ما الخبر ؟ إنها المرة الأولى التي نسمع فيها هذا النداء منك يا محمد ، فما الخبر ؟ أعام آخر كعام الفيل أم ماذا ؟ فرد على أسئلتهم بسؤال : أيها الناس كيف عرفتموني بينكم ؟ فأجابوه جميعاً : الصادق الأمين . فقال : إذا أخبرتكم أن وراء هذا الجبل جيشاً جراراً ينوي غزوكم ، أتصدقونني ؟ قالوا : نعم .

وعندما استوثق منهم ذلك ، قال : ﴿فَإِنّي نَـذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ﴾ .

﴿إنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَداعِياً الى اللهِ بإذْنِهِ﴾وإنها لمهمة كبيرة وصعبة حقاً .

والآن ، ما دمت قد أصبحت داعياً الى الله ، فما هي الوسيلة التي يمكن بها دعوة الناس الى الله استناداً الى ما رآه في النوم ؟ إن القرآن قد عين الطريق طريق الدعوة الى الله ، الى اكبر حقيقة في العالم ، طريق الدعوة الى شيء يمكن به هداية العقل والسير به الى الجانب الآخر ، الدعوة الى شيء لا بد أن يتقبله العقل بالدليل ، أو بالبرهان ؟ أو بالحكمة ، أو بالكلام المنطقي . وهذا واحد من الجوانب التي تزيد في صعوبة أداء الرسالة . . ترى أيكفي أن يوصل الأنبياء الرسالة . . رسالة الله . . الى العقول ؟ سبق أن قلنا : إن الإبلاغ الحسي لا

يكفي ، بل يجب إبلاغه وإيصاله الى العقل ، أفيكفي هذا الإيصال ؟ كلا ، فهذا إنما يعتبر المرحلة الأولى فحسب .

إن واجب المعلم هو أن يوصل كلامه . . علمه . . إلى عقول الطلبة . يأتي الى السبورة ، أمام الطلبة الجالسين ، فيشرح مسألة حسابية . عندما يشرح المسألة نفسها في أول الأمر لا يستطيع عقل الطالب أن يدرك إن كان هذا هو هكذا أم لا ، ما لم يأت المعلم بدليل ، وبعد إقامة الدليل والبرهان الرياضي تدخل نظرية المعلم الى عقل الطالب . أما الأنبياء فلم يأتوا لمجرد إدخال دعاواهم في عقول الناس . إن عمل الفلاسفة ، إذا كانوا موفقين فيه ، لا يتعدى إدخال رأي في عقول الناس ، ولا أصل لهم في المزيد .

الرسالة الآلهية فضلاً عن كونها ينبغي أن تنفذ الى العقول ، لا بد لها من أن تدخل القلوب أيضاً ، أي عليها أن تصل الى أعماق روح الإنسان ، وأن تهيمن عن كل مشاعره ووجوده ، ولذلك فإن الأنبياء هم القادرون على تحريك البشر باتجاه الحقائق ، لا الفلاسفة .

إن الفيلسوف المسكين يجهد نفسه ويسعى سعيه لكي يوصل ما يدور في فكره الى أفكار الناس ، بل إلى بعض الناس لا كلهم . وهؤلاء عليهم أن يحضروا دروسه مدة مّن الزمن وابتداء من عمر متقدم ليألفوا لغته ويتعوّدوا على مصطلحاته ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن بلاغه ليس هو البلاغ المبين وليست له قدرة البلاغ المبين ، فيضطر الى تقديم آرائه ملفوفة في مئآت من المصطلحات العويصة .

كان أحد أساتذتنا الكبار يقول : إن الفيلسوف الذي يضطر الى استعمال مصطلحات كثيرة مثل : الإمكان الذاتي ، والإمكان الإستدلالي ، والإمكان الإستعدادي ، وواجب الوجود بالذات ، والعقل الأول ، والعقل الثاني . . إلى آخر ما هنالك من المصطلحات الفلسفية ، إنما يدل على عجزه وضعف وسيلته ، لكونه لا يستطيع الإستغناء عن هذه الأغلفة والصيغ .

ولكننا نرى الأنبياء ، وبغير أن يستعملوا أي اصطلاح أو غلاف من تلك الأغلفة والصيغ ، يقولون ما يريدون ببيانهم المبين وبكلمتين اثنتين أو ببضع جمل بسيطة ، حتى ليحار الفيلسوف ، كيف يستطيع الأنبياء أن يقولوا ما يريدون بهذا الأسلوب السهل الممتنع وبهذه البساطة ، فنقرأ :

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد﴾[٤٢] .

﴿يُسَبِّحُ للَّهِ مَافِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

---

(٤٢) سورة التوحيد .

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤٣].

فالأنبياء فضلاً عن كونهم أفضل من الفلاسفة في الوصول الى الناس ، فإن عملهم أكبر وأجل ، لأنهم يوصلون رسالتهم الى القلوب ، أي الى كل الوجود البشري ، بحيث أن من يؤمن بنبي يكون مرتبطاً به بكل وجوده .

لعلكم كثيراً ما سمعتم هذه القصة المعروفة عن ابن سينا ، الذي كان عبقرياً في الحواس والطب ، فقد كان بصره أنفذ وعقله أحد وأذكى من غيره ، حتى أن الناس راحوا شيئاً فشيئاً ينسجون الأساطير عن قوة السمع والبصر وسائر الحواس عنده .

من ذلك مثلاً قولهم : إنه كان في أصفهان يسمع أصوات مطارق الصفارين في كاشان . بديهي أن هذه أسطورة ، إلا أن الأساطير تنسج عادة على أرضية مناسبة .

كان بهمنيار ، تلميذه ، يقول له : إنك امرؤ لو ادعيت النبوة لتقبلها منك الناس ولآمنوا بك مخلصين لك . وكان ابن سينا يرد ذلك عليه بكثير من الكلام ، ولكن تلميذه لم يقتنع فعزم ابن سينا على أن يبين له خطل رأيه بصورة عملية .

وفي احدى السفرات التي كانا فيها معاً ، وكان الوقت

---

(٤٣) سورة الحديد ، الآية ٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شتاء، والثلج يغطي كـل شيء ، استيقظ ابن سينا ليلة قبيـل طلوع الفجر ، وقت الأذان . فأيقظ بهمنيار ، وقال لـه : انني عطشان ، فاملأ هذا القدح من ذلك الكوز وائتني بـه . ولكن بهمنيار ، الذي كان يحس بلذة الدفء تحت اللحـاف ، أخذ يأتي بالأدلة لاستاذه قائلاً : إنك طبيب وتعرف طبعـاً أن شرب الماء على معدة خالية ملتهبة من العطش يسبب برودتها برودة فجائية ، مما يؤدي ـ لا سمح الله ـ الى المرض .

فقال له ابن سينا : أنا طبيب وأنت تلميذي . أنا عطشان فاذهب وجئني بالماء . وعاد بهمنيار ينحت الأعذار والبـراهين على أن ذلك ليس صحيحاً ، وقال : صحيح أنني تلميـذك ، ولكني أريد لك الخير ، وإن اهتمامي بصحتك خير من طاعتي لأوامرك . . فقال ابن سينا : اطلب من الكسول شيئاً ، فلا تنال غير نصيحة أبوية .

واستمر بهمنيار في إسداء نصائحه لأستاذه . وبعد أن تأكد ابن سينا أن بهمنيار لن ينهض ليأتي بالمـاء ، قال : أنـا لست عطشاناً . كنت اريد اختبارك . أتذكر أنك كنت تحرضني على ادعاء النبوة ، وأنني إذا ادعيتهـا فإن النـاس سوف يؤمنـون بي ويتقبلونها مني؟ فلو أني ادعيت النبوة، أفكنت تتقبلهـا مني أنت. . أنت تلميذي الذي درست عندي سنين طويلة؟! إنني عندما طلبت منك أن تأتيني بقليل من الماء رحت تقيم مختلف الأدلة وتأتيني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بشتى البراهين لرد طلبي . إن هـذا المؤذن قد هجـر فراشـه الدافىء ، وصعد المئذنة لينـادي ، بعد مئـآت السنين ، بأنـه يشهد أن محمداً رسول الله . فمحمد هو النبي ، لا ابن سينا .

من هنا ندرك أنه إذا أريد لرسالة أية رسالة آلهية ، أن تصل الى القلوب ، فتسخرها وتهيمن عليها ، وأن تحرك المجتمع ، ليس باتجاه منافعه وحقوقه فحسب ، بل تحركه حركـة تحمل الإنسان على التوبة ، على ذرف دموع الندم والرجاء عند سماع آيات قرآنه : ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾[٤٤] ، فإنها لن تكون رسالة سهلة يسيرة ، بل هي من أصعب الصعاب .

لذلك نرى القرآن يدلنا ، بألسنة سائر الأنبياء وبلسان نبينا الكريم ، على « الأسلوب » الذي ينبغي اتباعه لنشر الدعوة ، وشـروط ذلك . ومنهـا ـ كما قلت ـ إبـلاغ الدعـوة . ويقصـد بالإبلاغ الإيصال عن طريق الدعاية والإعلان .

ثمة ألفاظ حسنة الحظ ، وأخرى سيئته . إن تعبير الدعاية والإعلان ـ في عصرنا الحاضر ـ سيء الحظ . إذ حيثما ذكرت هـذا التعبير قيـل أن القضية لا أسـاس لها من الصحـة ، وإن أصحاب الدعاية يريدون أن يفرضوا على الناس بالقوة وبالكذب أمراً ما . ولكن هذا هو المعنى الغلط الذي اتخذه المصـطلح

---

(٤٤) سورة الاسراء ، الآية ١٠٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليوم . ولقد سبق أن قلت : إن أي مصطلح صحيح في القرآن أو في السنة تغير معناه الى معنى مختلف أو مغاير ، فإن علينا أن لا نتخلى عن مصطلحاتنا بمعانيها الحقيقية .

يقول بعضهم : اتركوا استعمال كلمة دعاية ، لأن هذه الكلمة أكثر ما تصاحب الإعلانات التجارية عن الدهن النباتي مثلاً ، وهو كذب محض ، كأن يقولوا : إنك أن أكلت بضعة مثاقيل منه استطعت أن تعدو في البراري مثل الغزلان ، بل قد تصبح أقوى من ذلك . إن الدعاية تعني الكذب ، وعليه فمن الأفضل ألا نستعمل في مصطلحاتنا الدينية كلمة الدعاية .

أقول : ولماذا ؟ إن الدعوة مصطلح قرآني ، وكذلك الإبلاغ والبلاغ . وعندما يكون معنى المصطلح صحيحاً ، فلا ينبغي أن نقلق بحجة أن معناه قد انحرف وتغير في عرف المجتمع . إننا نستعمله بمعناه الصحيح حسبما ورد في القرآن وفي اللغة ، فالدعوة للإسلام أو الدعاية له ، تعني إبلاغ رسالته للناس .

فالقرآن قد استعمل كلمة البلاغ . ووصفه بأنه البلاغ المبين ، الذي يوضح كل شيء . إن الداعي والمبلغ الذي يكون بلاغه مبيناً هو الذي يصل الى نتيجة ، وذلك لأنه في الوقت الذي يعلن فيه عن الحقيقة ، فإنه يعلنها بلغة بسيطة وجلية ، يفهمها الناس عامة ويدركونها بسهولة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الذي يتحدث بلغة وحشية صعبة المرتضى ، ثم بعد ذلك لو سألت المصفقين له : ماذا قال ؟ لقالوا : لا نعلم . هذه لغة لا تنفع في الدعوة والتبليغ .

يقولون : حضر أحدهم مجلس أحد الخطباء ، ثم خرج وهو لا يفتأ يثني على الخطيب ويقول : لقد أجاد وأحسن . فسألوه : حسن . . ماذا كان يقول : فقال : أنا لم أفهم ما كان يقول . فقالوا : إذن كيف تقول : إنه أجاد وأحسن ؟

المهم في كل قول أن يقوم السامع وقد فهم شيئاً منه . إن من شروط المبلغ والداعية الجيد هو أن الذي كان جالساً يستمع إليه يقوم ممتلىء الحضن ، ويكون حقاً قد ازداد شيئاً من علم ومعرفة ، فهذا دليل قدرة المبلغ وتمكنه .

قد يظن بعضهم أن من لم يفهم الناس شيئاً مما يقول يكون ذا مستوى رفيع . كلا ، ليس الأمر كذلك . لقد كان النبي يتحدث بلغة رفيعة بليغة المعاني ، حتى أن أناساً بعد أربعمائة سنة وجدوا فيها ما لم يستطع الأولون فهمه ، ولكنهم مع ذلك كانوا يفهمون شيئاً على قدرمداركهم . إن خطب الإمام علي (ع) على رفعتها ، كان يفهمها المستمعون إليها بقدر سعتهم العلمية ومعرفتهم .

تتكرر في القرآن بشأن الدعوة وابلاغها ، وعلى ألسنة رسل الله ، كلمة « النصح » أي حب الخير والخلوص ، وتقابلها كلمة

« الغش » . فعندما تخلط بضاعة بمادة أدنى أو مختلفة ، نقول : إنها مغشوشة ، وإن البائع يغش الناس .

أما النصح في القول فهو الإخلاص فيه ، أي أن يكون ناشئاً من خالص الرغبة في إيصال الخير الى الآخرين . فلا يمكن أن يكون أحد داعياً الى الله ومبلغاً لرسالته إلا إذا كان ناصحاً في قوله ، ولا دافع له سوى حب الخير للناس والتحرق على مصلحتهم ، بحيث يخرج كلامه من أعماق قلبه : « الكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان » . وهذا مطلوب في الرسالة الإلهية دون إبلاغ الرسالات الأخرى .

لم يفتأ الأنبياء يقولون : « إنّي أَنْصَحُ لَكُمْ » و« إنّي ناصِحٌ » و « وإنّي لَكُمْ مِنَ النّاصِحِينَ » . عندما يتحدث موسى مع ربه عن ثقل المهمة ، فإنه لا يعني فقط ثقل إبلاغ الرسالة الى فرعون . . ذلك الطاغي الجبار . . بل لأن هناك في المهمة اثقالاً أخرى :

إلهي ، أعني لكي أكون موسى ليس فيه من موسى شيء ، ليس فيه « أنا » ولا « ذات » حتى أبلغ رسالتك بكل إخلاص .

والشرط الآخر من شروط الصدوع بالدعوة والتبليغ هو « عدم التكلف » . في القرآن آية يخاطب فيها الله رسوله ، فيقول له :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٤٥) . فما هو التكلف ؟

للمفسرين كلام كثير في هذا ، ولعلهم جميعاً يرجعون الى معنى واحد هو « تحمل المشاق » . فكيف ؟ قد لا يعتقد الإنسان بشيء ما ولكنه يريد أن يدخل ذلك الإعتقاد في قلوب الناس . ليس أشق من أن لا يكون الإنسان مؤمناً بشيء ، ثم يسعى الى إدخال الإيمان بذلك الشيء في قلوب الناس . ولقد قالها الأقدمون : فاقد الشيء لا يعطيه . فالسحابة التي لا ماء فيها كيف يمكن أن تسقي الأرض ؟ !

يفسر ابن مسعود وعدد من المفسرين التكلف بأنه « **قول بغير علم** » . فما معنى هذا ؟ يعني أنك لا تستطيع أن تجد في العالم كله شخصاً يجيبك على كل أسئلتك سوى النبي والإمام . ما من أحد يستطيع أن يدعي أنه قادر على الإجابة على كل سؤال ديني يطرح عليه . ولكن النبي (ص) قادر على ذلك . وقد قال الإمام علي (ع) : « **سلوني قبل أن تفقدوني** » .

فباستثناء النبي والأئمة ، يكون انتظارك لأن يجيبك شخص على كل أسئلتك في غير محله . إذن ، عليَّ أن أعرف حدودي . فأنا قد أعرف جواب بعض الأسئلة الدينية ، فأطرحها

---

(٤٥) سورة ص ، الآية ٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الناس . . ولكن هناك أمور لا اعرفها او مع ذلك أحاول أن أفرضها فرضاً على الناس . كيف يستطيع إنسان أن يعرّف الناس على أشياء هو نفسه لا يعرفها ؟

يقول ابن مسعود : « **قل ما تعلم ولا تقل ما لا تعلم** » . فإذا سئلت عن شيء لا تعرفه ، فقل بكل جرأة وصراحة : إنك لا تعلم . ثم يورد ابن مسعود هذه الآية : **﴿قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾** .

ابن الجوزي من الخطباء والوعاظ المشهورين . كان يوماً يخطب الناس من على منبر ذي ثلاث درجات ، فقامت امرأة من تحت المنبر وسألته مسألة ، فقال : لا أعلم . فقالت المرأة : إذا كنت لا تعلم ، فلم ارتفعت على الناس ثلاث درجات ؟ فرد عليها قائلاً : إن هذه الدرجات الثلاث إشارة الى ما أعرفه ولا تعرفينه . إنني أعلو بمقدار ما اعرف ، ولو أردت أن أعلو بمقدار ما أجهل لما كفاني منبر يعلو الى فلك الأفلاك . إنني لو شئت أن أرتفع بعدد ما لا أعلم لبلغ منبري عنان السماء . أتراه قبيحاً ان يقول المرء : لا أعلم ، عما لا يعلم ؟ !

تعرفون أن الشيخ الأنصاري كان من أهالي شوشتر . وكان الشيخ نابغة زمانه في العلم والتقوى ، وما يزال العلماء والفقهاء يفتخرون بكونهم يفهمون دقائق كلام هذا الإنسان . يقال : إنه إذا سأله شخص سؤالاً لا يعرف الشيخ جوابه ، أو كان يستلزم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض التأمل ، كان يقول بصوت عالٍ : لا أعلم . لا أعلم . كان يقولها هكذا حتى يتعلمها طلابه فلا يتعبون أنفسهم ، بل يقولونها بكل شجاعة : لا نعلم !

في أحد ايام شهر رمضان كنا مع بعض الأصدقاء في أصفهان ، وأتذكر أنني كنت أريد أن أعبر الشارع . وما إن بلغت منتصف الشارع حتى استوقفني رجل من أهل الريف وقال لي : عندي مسألة أريد جوابها . فقلت : قل . قال : غسل الجنابة ، هل يخص الجسم أم الروح ؟فقلت : والله لا أعرف معنى هذا الكلام . فغسل الجنابة ، مثل سائر الأغسال ، يخص الروح من جهة لأنه يستوجب النية ، ويخص الجسم من جهة أخرى لأن المرء يغسل جسمه . أهذا قصدك ؟ فقال : عليك أن تجيب جواباً صحيحاً . وعاد يكرر السؤال . فقلت : لا أعلم . فقال : إذا كنت لا تعلم ، فلم تضع هذه العمامة على رأسك ؟

فالنبي (ص) يقول : « وَما أَنا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ » .

هنا ينتهي كلامي حول الدعوة وإيصال الرسالة والتبليغ . وبما أن الليلة هي ليلة ولادة الإمام الحسن العسكري (ع) ، فيطيب لي أن أقول شيئاً بهذه المناسبة ، مناسبة عيد ميلاد الإمام الحادي عشر ، هذه المناسبة التي يجب أن نتقدم فيها الى صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه) بتهانينا وتقديرنا .

الإمام الحسن العسكري (ع) من الأئمة الذي كانوا كلما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اقترب من أحدهم موعد إمامته ازداد الوضع سوءً . لقد كان الإمام في سامراء ، مركز الخلافة العباسية آنذاك[٤٦] . لقد أجبر هو والإمام الهادي عليهما السلام على أن يسكنا في سامراء في منطقة تسمى (العسكر) وكانت ـ في الحقيقة ـ في منطقة للجند والعسكر أي إن البيت الذي اختير لهما ليسكنا فيه كان داخل المعكسر لكي يكونا تحت المراقبة .

لقد توفي الإمام الغسكري هو في الثامنة والعشرين من عمره ، وتوفي أبوه في الثانية والأربعين . لم تطل فترة إمامته أكثر من ست سنوات . وحسبما جاء في كتب التاريخ ، أنه قضى هذه السنوات الست اما ، في الحبس ، واما محجوراً عليه في بيته لا يزور أحداً ولا يزوره أحد ، ولم تكن له حرية في ذلك ، وإذا حدث بعض التزاور فقد كان يحدث تحت المراقبة . . وإنه لوضع عجيب . . عجيب حقاً .

تعلمون أن لكل إمام ميزة خاصة كانت تظهر فيه أكثر من غيرها ، حتى أن الخواجة نصير الدين في بنوده الأربعة عشر يصف كل إمام بصفته الخاصة . كان الإمام العسكري يمتاز

---

(٤٦) انتقل مركز الخلافة من بغداد الى سامراء في زمن المعتصم ، وبقي هناك ردحاً من الزمن ثم عاد إلى بغداد . وكان السبب في ذلك أن جنود المعتصم ازداد ظلمهم لعامة الشعب ، وتعالت أصوات الشكوى ، دون أن يلتفت إليها المعتصم أول الأمر ، ولكن حاشيته استطاعت في النهاية أن تقنعه بأن يبعد جنده عن الناس ، فكان أن نقل مركز خلافته الى سامراء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالهيبة والجلال والعظمة ، وكانت هذه ظاهرة عليه بحيث أن كل من كان يلتقيه كان يقع تحت تأثيره قبل أن يقع تحت تأثير كلامه وسعة علمه ، فكيف به بعد أن يشرع ذلك البحر الزاخر من العلم بالكلام . وهذا ما يؤكده الكثير من الحكايات والروايات ، فحتى الأعداء الذين كانوا يراقبون الإمام وكثيراً ما سجنوه ، كانت تنتابهم حالة عجيبة عندما يواجهونه بحيث أنهم لم يكونوا يستطيعون مخالفته .

المحدث القمي في كتابه (الأنوار البهية) يورد حكاية عن الإمام ينقلها عن أحمد بن خاقان ـ ابن وزير المعتمد بالله ـ عن أبيه الذي شهد الحادثة بنفسه . . إنها حكاية عجيبة ، ولكن الوقت لا يتسع الآن لسردها . إن أهم سبب حدا بهم الى أن يضعوا الإمام تحت المراقبة الشديدة ، هو أنهم كانوا يعلمون أن الإمام المهدي (ع) سيولد من صلبه . وعلى غرار فرعون الذي سمع بأن موسى سوف يولد في بني إسرائيل ويقضي على فرعون والفرعونيين ، فراح يقتل أبناء بني إسرائيل دون بناتهم ، وارسل النسوة يفتشن في بيوت بني اسرائيل عن الحوامل لكي يراقبوها حتى تلد ليعرفوا جنس المولود .

وهذا ما فعلوه مع الإمام العسكري (ع) إلا أن هذا الأحمق لم يخطر له أنه إذا كان هذا الخبر صحيحاً ، فكيف كان يريد أن يوقف أمر الله ؟ كان بين الحين والحين يرسل نفراً يفتشون بيت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام ، وعلى الأخص بعد وفاة الإمام ، لأنهم كانوا قد سمعوا بولادة الإمام المهدي (ع) .

أما حكاية ولادة الإمام المهدي (ع) فكلكم قد سمعتموها وكيف أن الله تعالى قد أخفاها حتى بلغ السادسة من عمره عند وفاة والده (ع) . وأثناء طفولته كان الشيعة يفدون من مختلف الجهات يزورون الإمام(ع) فكان يريهم الإمام المهدي (ع) ، ولكن الناس عموماً لم يكونوا يعلمون بوجوده . ولكن الخبر انتشر أخيراً بأن للإمام الحسن العسكري (ع) ولد ولكنه يخفيه عن العيون ، فكانوا أحياناً يرسلون أشخاصاً الى دار الإمام لعلهم يعثرون على هذا الطفل فيقتلونه . ولكن إذا أراد الله شيئاً ، فهل يستطيع عبد أن يقف ضد إرادته؟ حينما يكون قضاء الله حتمياً ، لا تكون للبشر إرادة .

وفي اللحظة التي توفي فيها الإمام هجم جلاوزة السلطة على الدار يفتشونها تفتيشاً دقيقاً ، وبعثوا بالنسوة من جواسيسهم لمعرفة الحوامل من نساء الدار قاطبة من الوصائف وغير الوصائف . واشتبهوا بإحدى الوصائف أنها حامل ، فاحتجزوها سنة كاملة ، ثم ظهر أنهم كانوا على خطأ .

أم الإمام العسكري (ع) تسمى « خبير »وتلقب بالجدة [٤٧]

---

(٤٧) هناك عدد من النسوة في التاريخ اشتهرن باسم الجدة تبعاً لشهرة حفدائهن ، منهن جدة الشاه عباس ـ التي أطلق اسمها (الجدة) على مدرستين في اصفهان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأنها جدة الإمام المهدي (عج) . هذه المرأة الجليلة اشتهرت بلقب « الجدة » ولكن هذا لم يكن وحده سبب شهرتها ، بل كان لها مقامها وجلالها وشخصيتها ، وقد كتب عنها (كما جاء في « الأنوار البهية » للمرحوم المحدث القمي رضوان الله عليه) أنها كانت ملجأ الشيعة بعد الإمام العسكري (ع) ، ولدها ، الذين توفي وهو في الثامنة والعشرين ، فيكون عمرها (بحساب عمر الإمام الهادي (ع) أيضاً في الخمسين او الستين . ولقد كان لها من الجلال والشخصية ما جعلها موئل الشيعة كلما ألمت بهم مشكلة من المشاكل .

يقول أحدهم : تشرفت بخدمة عمة الإمام العسكري (ع) السيده حكيمة « ابنة الإمام الجـواد « ع ») وتباحثت معهـا في العقائد وأمثال ذلك من الأمور ، ثم سألتها عن الإمامة . فبينت آراءها في العقائد ، ثم عندما بلغ حديثها الى الإمام العسكري قالت :

إن إمامي الآن هو ابنـه ، وهو مستـور ومخفي . فقلت : خـلال اختفائـه لمن نرجـع بمشاكلنـا ؟ فقالت : ارجعـوا الى « الجـدة » . فقلت : عجبـاً تـوفي الإمـام وأوصى لامــرأة . فقالت : كلا ، إن الإمام العسكري فعـل ما فعله الحسين بن علي (ع). إن وصي الحسين (ع) الحقيقي كـان إبنه علي بن الحسين ، ولكن ألم يعهـد بكثير من وصـاياه الى أختـه زينب

الحـوراء (ع)؟ وهذا مـا فعله الحسن بن علي العسكـري (ع) فوصيه هو ابنه الغائب ، ولكنه في الظاهر أوصى لهـذه المرأة الجليلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طريقة التبليغ

﴿الَّذِين يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ ويَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحداً إلاَّ اللهَ وَكفى بِاللهِ حَسِيباً﴾(٤٨) .

كان بحثنا السابق في السيرة النبوية يدور حول الدعوة وتبليغ الإسلام . وبدأنا بتبيان ثقل هذه الوظيفة وأهميتها ، ثم تكلمنا على بعض الشروط والخصوصيات التي يتميز بها نبينا الكريم وسائر الأنبياء عموماً ، وقلنا : إن « **شرح الصدر** » من جملة هذه الضرورات وهو يكشف عن أهمية المسألة . كذلك تطرقنا الى « **البلاغ المبين** » و« **النصح** »و« **عدم التكلف** »وكونها من تلك الضرورات .

والآن سوف نتطرق الى امور أخرى بحول الله وقوته :

في الكلمة السابقة تلوت عليكم الآية القرآنية التي نزلت بحق النبي (ص) ، وهي :

---

(٤٨) سورة الأحزاب ، الآية ٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إنّا أَرسلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَداعِياً الى اللهِ بِإذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾ .

أريد أن اتحدث بعض الشيء عن « النذير » ثم أتطرق الى بعض توصيات النبي الكريم (ص) .

« البشير » هو الذي يأتيك بخبر مفرح ، فمثلاً إذا أردت أن تعهد الى ابنك كي يقوم بعمل ما ، فإنك تعالج ذلك بأحد أسلوبين أو بكليهما :

الأول : هو اسلوب الترغيب وبعث الأمل فيه ، فإذا كنت تريد إلحاقه بالمدرسة ، مثلاً ، فتروح تشرح له فوائد الذهاب الى المدرسة ونتائجه وآثاره ، لكي تثير فيه روح الرغبة في ذلك .

الأسلوب الثاني : هو أنك تأخذ بشرح العواقب الوخيمة التي سوف تترتب على عدم ذهابه الى المدرسة وبقائه أمياً وكذا وكذا . ولكي يتخلص ابنك من هذه الحالة يوافق على الذهاب الى المدرسة . إذن فأنت إما أن تستعمل معه التشويق وتبشره بما ينتظره فتجذبه من الأمام الى ما تريد ، وإما أن تستعمل « الإنذار » والتخويف ، بالمعنى الذي ذكرته ، وهو إعلان الخطر ، أي إنك تدفعه من الخلف الى ما تريد ، ولهذا قيل :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البشير قائد . والنذير سائق .

أما إذا اتحد الإثنان ـ القائد والسائق ـ لتحريك النـاس ، فالنتيجة تكـون أفضل ، وكـلاهما ضـروريان للبشـر . أي إن التبشير وحده لا يكفي وإن يكن لازماً ، وكذلك الانذار ، فهو وحده لا يكفي ، ولكنه لازم . وما تعبير « **سبع المثاني** » الذي يوصف به القرآن إلا لكونه في جانب منه يقرن التبشير بالإنذار ويوردهما معاً ، إذ من الخطأ أن تعتمد دعوة على التبشير وحده ، أو على الإنذار وحده ، بل ينبغي الإتكاء عليهما معاً ، على أن يكون ميزان التبشير أثقل ، وميزان الإنذار أخف ، كما يتضح في القـرآن حيث يقدم التبشيـر على الإنذار ، فيقـول : ﴿ **بشيـراً ونذيراً** ﴾ .

هنالك واجب آخـر هو « **التنفيـر** » أي حمل النـاس على النفور من شيء ما . فقد يخطىء المرء أحياناً ويخلط بين الإنذار والتنفير ، ويستعمل أحدهما بمكـان الآخر . فـالإنذار يكـون عندما يسوق النذير الناس الى شيء ما ، ولكن التنفير هو حمل الناس على الفرار من شيء ، كما لو كان المرء يحاول أن يسحب حيواناً لكي يقوده خلفه بالرغم منه ، وفجأة يجذب الحيوان رأسه الى الخلف بقوة ويقطع زمـامه ، ويفـر هاربـاً ممن كان يـريد سحبه . هذا هو التنفير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فبعض الدعوات فضلاً عن كونها ليست سوقية ، فإنها تكون تنفيرية أيضاً ، وهذا أمر نفساني . فإذا عدنا الى مثال الطالب والمدرسة نفسه ، نلاحظ ان الأبـوين أو المعلم ـ في كثير من الأحيان ـ ينفرون التلميذ بدلاً من التبشيـر والإنذار ، أي إنهم يفعلون مـا يثيـر في نفس الـطالب روح التنفـر والنكـوص عن المدرسة . ولهذا نجد أن رسول الله (ص) عندما يرسل معاذ بن جبل الى اليمن (٤٩) لدعوة الناس الى الإسلام يوصيه بما يلي :

---

(٤٩) اليمن من المناطق التي دخلت الإسلام بغير حرب . والسبب في إسلام أهل اليمن هو حكاية الرسالة التي بعث بها الرسول الكريم إلى خسرو پرويز شاه ايران يدعوه فيها إلى الإسلام . لقد كتب النبي (ص) رسـائل إلى جميـع رؤساء العالم ، ومنهم كان خسرو پرويز شاه ايران ، يبلغهم فيها رسالة الله . فلم يرد بعضهم على تلك الرسائل ، إلا أن الكثير منهم أجابوا بإجابات فيها الإحترام والتواضع ، بعد أن استقبلوا رسل النبي (ص) بالإجلال والتكريم ، وحملوهم الهدايا ، مع أجوبتهم المؤدبة .
أما الوحيد الذي لم يكن جوابه مؤدباً فقد كان خسرو پرويز شاه إيران الـذي مزق رسالة رسول الله .
كانت اليمن يومئذ تحت حماية الفرس ، وكـان ملك اليمن من عملائـه . لذلـك أرسل شاه إيران رسالة إلى ملك اليمن يقول له فيها : لقد ظهر في جزيرة العرب رجل تجرأ على أن يكتب لي رسالة يدعوني فيها الى الإسلام ، وقد كتب اسمه قبل اسمي (طبيعي أن الرسالة كانت من فلان الى فلان . ولكن هذا كان يريدها أن تكون : إلى فـلان من فلان ، للدلالـة على أن كاتب الرسالـة أدنى مقامـاً من المرسـل إليه) فـابعث فوراً من يستعلم عن هـذا الشخص واقبض عليه وارسله إلي مكتفاً حتى ينال عقابه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

. . . .

= فأرسل ملك اليمن رسولاً يمثله مع رسول شاه إيران الى المدينة لمقابلة رسول الله (ص) حيث قالا له : إن شاه إيران كتب يقول كذا ، فما ردك عليه ؟ فطلب النبي (ص) منهما البقاء فترة لإعداد الجواب . وعندما عادا إليه ، طلب منهما البقاء أياماً أخرى لكي يرد الجواب . وبعد أيام جاءا يطلبان الجواب ، فاستمهلهما أياماً أخرى ، وكذلك فعل عند عودتهما إليه مرة أخرى ، حتى أنه أبقاهما في المدينة مدة تقارب الأربعين يوماً . وأخيراً جاءا الى النبي وقالا : إنه لا يستطيع أن يؤخرهما اكثر من ذلك ، فهما قد صمما على العودة ، وإنهما يريدان الجواب على رسالة (ربهما) خسرو پرويز . فقال لهما النبي (ص) : إن جوابكم هو هذا : البارحة بقر شيرويه بطن أبيه ، ربكما خسرو پرويز ، وقضى عليه .

عندما رجع هؤلاء الى (بازان) ملك اليمن، وأخبراه بالخبر، لم يكن خبر مقتل الشاه قد وصل إليه بعد ، لأن المسافة بعيدة بين المدائن واليمن ، فقال : سبحان الله إذا كان هذا صحيحاً ، فإنه من علائم ثبوت نبوة هذا الرجل . فلننتظر . ولم تمضِ إلا أيام حتى وصل مبعوث شيرويه بأن خسرو پرويز قد قتل وأنه هو شاه ايران وإن عليك ألّا تتعرض للشخص الذي يدعي النبوة في جزيرة العرب .

من هنا بدأ التمهيد لدخول اليمن في الإسلام . ثم إن اليمن كان فيها الكثير من الفرس . ولقد سبق أن قلنا في كتابنا (الخدمات المتقابلة بين الإسلام وإيران) : إن إسلام الفرس قد بدأ في اليمن ثم انتقل الى فارس كلها ، وإن الإخلاص الذي بدأ أبداه الفرس المقيمون في اليمن لم يبده غيرهم ، وذلك

لأن اليمن كانت من مستعمرات فارس وكان الكثير من الفرس قد سكنوا اليمن ، وكان يطلق عليهم اسم (الأحرار) أو (الأبناء) . وقد اختار هؤلاء الاسلام قبل غيرهم

لقد أصبح نصف أهل اليمن من المسلمين على عهد رسول الله (ص) . ولدعوة =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ وبشِّر وَلَا تُنَفِّرْ »[٥٠] .

هذا كلام كبير يستوجب التوضيح . سأروي لكم بهذا الخصوص امراً عن رسول الله نفسه ، ثم أبين الروايات الواردة عن الأئمة الأطهار في تفسير هذا الكلام وشرحه . إن نفس الإنسان رقيقة وسريعة في إظهار التأثر وفي إظهار ردود الفعل . فإذا ضغط الإنسان على روحه ونفسه ـ بله أرواح الآخرين ـ فسيكون رد الفعل هو النفور والفرار .

ففي العبادات ـ مثلاً ـ يوصي النبي (ص) قائلاً : اعبدوا بقدر ما في أرواحكم من نشاط للعبادة . أي أدّوا العبادات برغبة وميل . أما إذا أديت العبادات ، وأقمت الصلاة ، وأديت المستحبات ، وقرأت القرآن ، وسهرت الليل ، حتى أحسست أن ذلك أصبح يثقل عليك وأنك تجد فيه صعوبة ، أي إنك بدأت تحمل نفسك حملاً على ذلك ، فاترك ذلك ، ولا تحمل

= النصف الآخر الى الإسلام أرسل رسول الله مرة معاذ بن جبل ، ومرة أخرى كانت في حجة الوداع ، أي قبل شهرين من وفاة الرسول ، وذلك عند رجوع علي (ع) من اليمن والتقى رسول الله في مكة ، فسأله : كيف أحرمت ؟ أي أية حجة نويت ، حجة التمتع أم حجة اخرى ؟ فقال علي : في الميقات نويت على نية رسول الله ، فنيتي على نيتك . فقال النبي : لقد صحت نيتك .

(٥٠) سيرة ابن هشام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسك على العبادة حملاً . لأنك بالإستمرار على حملها على ذلك تثير فيها بالتدريج حالة من النفور والفرار ، حتى يصل بك الأمر الى اعتبار التعبد كشرب الدواء ، وعندئذ تتولد في ذهنك فكرة سيئة عن العبادات .

ولذلك يوصي النبي (ص) جابراً فيقول : يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر . ثم قال ما مفاده : يا جابر ، الإسلام دين متين . فعامل نفسك بالحسنى . يا جابر ، إن من يظن أنه بالتعسير على نفسه وبعدم التساهل معها يكون أسرع في بلوغ مقصده . . مخطىء ، فهو لن يصل إليه . إن مثله مثل الراكب الذي يقصد مدينة أخرى ، فيحسب أنه بتشديد الضرب على مطيته يكون أسرع في الوصول إليها ، ولكنه سرعان ما يجد أنه قد جرح المطية وأنهكها تعباً فحرنت في مكانها لا تريم . فيرى أنه فضلاً عن كونه لم يصل الى مقصده أصاب مطيته واقعدها .

فمن يشتد على نفسه ويحملها فوق طاقتها ، يخطىء إذا ظن أنه يكون أسرع في بلوغ ما يريد ، بل إنه قد لا يصل أصلاً ، وتعود روحه كالمطية الحرون من التعب ، لا ترفع قدماً عن قدم .

جاء عن الإمام الصادق (ع) أنه حكى الحكاية التالية : كان لأحد المسلمين الخيرين جار مسيحي ، مال الى الإسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأسلم . فتصور جاره المسلم أنه ينال الثواب إذا جعل من جاره المسيحي مسلماً شديد الإسلام . فبكر في اليوم التالي قبل طلوع الفجر يطرق بابه ، وأيقظه من نومه قائلاً : هيا نذهب الى المسجد للعبادة . . فتوضأ الرجل وصحب جاره العابد الى المسجد . وبعد مدة من العبادة سأله : هل انتهينا ؟ فقال : كلا ، علينا أن نصلي صلاة الصبح ، وصلياها . وسأله : هل انتهينا ؟ فقال : من المستحب أن نصلي النوافل ، فإن أداء النوافل بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ثوابه جزيل ! وهكذا أخّره حتى الظهر . عندئذ قال له : إنك لم تأكل شيئاً حتى الآن ، إذن فلننو على الصيام .

وفي فجر اليوم التالي عندما طرق باب صاحبه المسيحي (المسلم) طالباً أن ينهض للذهاب معه الى المسجد ، قال له : إن دينكم هذا ينفع العاطلين الذين لا شغل عندهم . أما أنا فقد رجعت الى ديني السابق .

ثم قال الإمام الصادق (ع) : ينبغي ألا يكون الأمر هكذا . فهذا الإنسان قد حمل مسيحياً على أن يصبح مسلماً ، ثم حمله مرة أخرى على الإرتداد الى كفره .

هنالك أمور كثيرة لها تأثير منفر ، أي أنها تنفر الناس من الإسلام . أحياناً تجد أن هيأة أحد المبلغين يكون لها هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأثر . فالنظافة في الإسلام سنة مستحبة مؤكدة ، فالنظافة من الإيمان ، ولعل نبينا كان أنظف الناس في أيامه ، ولو كان اليوم بيننا لكان أنظف الناس ، بلا ريب . من الأشياء التي لم يكن النبي (ص) يفارقها وكان يلتزمها دائما هو العطر والتعطر ، وهو كذلك من المستحبات .

فإذا كان المبلغ يرتدي ملابس قذرة متسخة ، وتنتشر من جسمه رائحة النتن والعفونة ، فإننا قد لا نستطيع أن نتهمه شرعاً بارتكاب معصية ، ولكن فلنتصور أن شخصاً قذراً مثل هذا يقول لشاب نظيف الملابس والبدن : إنه جاء يدعوه الى الإسلام . إن كلام هذا ا لشخص ، حتى وإن كان من الدر الثمين ، لن يكون له أي تأثير .

يقول المتكلمون ـ وهم على حق ـ إن من شروط النبوة هو ألا تكون في النبي صفة تنفر الناس منه ، بما في ذلك العاهة الجسمية ، على الرغم من أننا نعلم أن النقص الجسمي قد لا يصيب الكمال الإنساني بضرر . فإذا جاء رجل أعور ، ينظر بجهة واحدة من وجهه ، أفيكون ذلك سبباً في نقصه الروحي ؟ كلا ، بل قد يصل الى مقام سلمان الفارسي أو أرفع . ولكن أيمكن لمثل هذا الشخص أن يكون نبياً ؟ يجيب المتكلمون على هذا السؤال بالنفي . . يقولون : لأنّ تلك العاهة تثير النفور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الناس . إنه قد لا يكون نقصاً ، ولكنه يثير النفور . لذلك ينبغي أن تتوفر في النبي شروط جذابة ، حتى من الناحية الجسمية ، لكيلا يسبب النفور ، وإن لم تسبب له نقصاً روحياً .
إذن ، إذا كان ينبغي أن تكون هيأة مبلغ وداعية لله غير منفرة ، فالأولى ألا يكون سائر خصائصه من سلوك وتعامل وأقوال منفراً أيضاً .

وكثيراً ما يكون هذا سبباً لكثير من المشاحنات والمعاتبات . والعتاب قد ينفع أحياناً في استثارة مشاعر المخاطب وتحريكه ، ولكن لذلك أيضاً مكانه وزمانه . وقد يؤدي العتاب أحياناً ، - كما يقول أبو نواس - الى عكس المطلوب منه .

على كل حال ، ليست هذه قاعدة عامة ، ولكن قد يؤدي العتاب الكثير الى النفور والإنكماش ومن ذلك الخطأ الذي يقع فيه الآباء او المعلمون في تربية الأطفال ، فهم دائمو التوبيخ له ويلومونه على أتفه الأمور ويحقرونه بالكلام : انظر الى ابن جارنا كيف هو ! إنه أصغر منك . أنت لا خير فيك : لم أعد أرجو فيك خيراً . . . ظانين أنهم بذلك يثيرون الغيرة وحب المنافسة فيه ، مع أن ذلك يثير في الطفل رد فعل معاكسٍ ، بحيث أنه إذا تجاوز اللوم حده أدى الى إيجاد روح الإنقباض والإنهزام في الطفل ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصبح مريضاً نفسياً ، ويستحيل أن يقترب من الأمر الذي كانوا يحرضونه إليه .

لذلك كان رسول الله (ص) يوحي معاذ بن جبل وغيره بأن يبشر ولا ينفر . . ييسر ولا يعسر . لا يكن حديثك كله عن المشاكل والصعاب ، فإنك بذلك تخيف الناس . يقول رسول الله (ص) : « بُعِثْتُ عَلى الشَّرِيَعةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ » . فهل في الدين تسامح ؟ نعم ، إن الدين سمح ومتسامح ، ولكن لذلك أصوله . فكيف ؟

يقول الدين : توضأ . ولكن هذا الدين نفسه يقول : إذا كنت مريضاً . . مصاباً بجرح وتخشى الضرر (ولا يقول إن كنت موقناً من الضرر ، ولا إن كان فيه ضرر حتماً) من الماء ، فتيمم بدل الوضوء . هذا يعني السماحة ، يعني الدين ، فالدين ليس خالياً من التسامح ، بل فيه كل التسامح .

والصوم ، أليس مهماً ؟ ألا يرتكب ذنباً عظيماً من لا يصوم بغير عذر ؟ ولكن عندما يحين حينه ، يظهر الدين تسامحه . فإذا كنت مسافراً حيث يصعب الصوم ، أو إذا كنت مريضاً ، يقول الدين :

﴿وَمَنْ كانَ مَريضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ يُريدُ الله

بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾

فأنت في هذه الحالات لا تصوم ، بل تقضي صيامك في أيام أخر . حتى إذا كنت مريضاً ولا تدري إن كان الصوم يضرك مائة بالمائة ، ولكنك تخشى إن صمت أن يشتد مرضك ، وقد تكون خشيتك هذه قد أثارها منك طبيب فاسق . وثمة حديث يقول إنه ليس من اللازم أن يكون هذا الخوف قد وقع في قلوب الآخرين ، ﴿بَلْ آلإِنْسَانُ عَلَىَ نَفْسِهِ بَصِيرةٌ﴾ . أي ليس من اللازم أن يثير فيك هذا الخوف شخص آخر ، بل إنك تخشى اشتداد المرض عليك إن صمت ، فلك ألا تصوم وأنت في حالتك تلك . وهنالك حالات اخرى . المرأة الحامل القريبة من موعد وضعها ، وكالعجوز ، ـ رجلاً وامرأة ـ حتى وإن لم يخشيا ضرراً مرضياً ، بل لمجرد احتمال ضعفهما ، لهما ألا يصوما .

كان المرحوم آية الله الحاج شيخ عبد الكريم الحائري ، أعلى الله مقامه ، يصوم على الرغم من كبر سنه . فقيل له : لماذا تصوم ، مع أنك في فتواك وفي رسالتك قد أسقطت الصوم عن العجائز نساء ورجالاً . فهل تغير فتواك ، أم أنك لا تعد نفسك من العجائز ؟ فقال : لم تتغير فتواي ، وأنا أعلم أنني عجوز . فقيل له : إذن لماذا تصوم ؟ قال : إنه عرق العامية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي ما يزال ينبض في .

إذن ، فالنبي (ص) يقول : بعثت على الشريعة السمحة السهلة . إنه دين عملي . والحقيقة إن ما يجذب الناس من الخارج الى هذا الدين هو سهولته وسماحته . قال النبي (ص) : إن من يدعو لهذا الدين يجب أن يدعو لسماحة هذا الدين وسهولته ، وعليه أن يفعل ما يرغب الناس في هذا الدين .

ومن المسائل الأخرى في الدعوة للدين قول القرآن :

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحداً إلاَّ اللهَ وَكفى بِاللهِ حَسِيباً﴾ .

هذه آية من الآيات التي تقصم ظهر الدعاة الى الدين والمبلغين لرسالات الله .

تبين الآية أن ثمة شرطين يجب توفرهما في من يتصدى للدعوة الى الدين .

الأول : هو أنهم يخشون الله ، قلوبهم ملأى بالخشية من الله . ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾[٥١]. لقد جاء في دعاء كان النبي (ص) يدعو به : « اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنا مِنْ خَشْيَتِكَ ما

---

(٥١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يَحُولُ بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ ، وَمِنْ طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ رِضْوانَكَ ، وَمِنَ اليَقِينِ ما يَهُونُ عَلَينا بِهِ مُصِيباتُ الدُّنْيا . اللّهُمَّ أَمْتِعْنا بِأَسْماعِنا وَأَبْصارِنا وَقُوَّتِنا ما أَحْيَيْتَنا وَآجْعَلْها الوارثَ مِنّا وَاجْعَلْ ثارَنا عَلى مَنْ ظَلَمَنا وَانْصُرْنا عَلَى مَنْ عادانا ، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنا فِي دِيْنِنا وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَر هَمِّنا وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنا وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لا يَرْحَمُنا ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

هذا دعاء كان رسول الله (ص) يقرؤه ، فمن شاء فليحفظه ويقرؤه ، وليرجعوا الى (مفاتيح الجنان) أو (زاد المعاد) ليروا أعمال ليلة النصف من شعبان حيث يقرأ هذا الدعاء ، كما أنه يقرأ في أوقات أخرى أيضاً ، لأنه دعاء جامع لمصالح الإنسان في الدنيا والآخرة .

فالشرط الأول الذي يطلبه القرآن من حامل الدعوة ومبلغ الرسالة أن فما هي خشية الله ؟هي أن تكون هيبة الله وعظمته قوية الحضور في قلبه بحيث لا يمر بذلك القلب مجرد تصور الإثم إلا وتكون الخشية من الله هي الرادعة .

والشرط الثاني هو « **ولا يخشون أحداً إلا الله** » . إن« **الخشية** » تختلف عن « **الخوف** » . فالخوف هو القلق على العاقبة والمستقبل ، والتفكير في نتيجة عمل ما ، والتفكير في تدبر ذلك وتدبره . أما الخشية فهي حالة تسلط الرعب على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان بحيث لا يجرأ على أمر أو على تنفيذ ما يريد ، وهذا يعني أنه يفقد شجاعته . فالتفكير في عاقبة أمر ما لتدبيره يختلف عن فقدان الشجاعة .

فالآية تقول إن الذين يدعون الى الله يجب أن لا تكون فيهم ذرة من الجرأة على الله ، فهم يخشون الله . ولكنهم اذا واجهوا غير الله يكونون متصفين بالجرأة بذاتها والشجاعة نفسها ، و « **لا يخشون احداً إلا الله** » .

إن من الخصائص الأخرى في سيرة الأنبياء ، وعلى الأخص في سيرة نبينا (ص) هي هذه الجرأة ، وعدم التخاذل والثبات . وهذه الخصيصة أشد ما تكون وضوحاً في سير الرسول الكريم (ص) .

كتب أحد الفرنجة كتاباً بعنوان (محمد ، النبي الذي تجب معرفته من جديد) فيه كثير من العيوب . ولكني لست الآن بصدد عيوبه . وعلى الرغم من تلك العيوب ، فمن الواضح أنه قد تعب كثيراً في تأليفه ، وإنه قد قرأ تاريخ الإسلام قراءة عميقة . بل إنه عاش مدة في الحجاز لكي يطلع عن كثب على المنطقة الجغرافية التي ولد فيها الإسلام . فالكتاب ، على هذا ، لا يخلو من نقاط حسنة . إنه يجسد نقطتين تجسيداً جيداً :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأولى : حكمة الرسول الكريم وتدبيره ، بحيث أن غير المسلم إذا قرأ الكتاب لا يسعه إلا أن يقر بحكمة النبي (ص) وتدبيره .

والنقطة الثانية : التي استطاع هذا الكتاب أن يجسدها ، هي تلك الظروف التي عاش فيها النبي الكريم ، بحيث أنه لو كان أحد غيره بمكانه لفقد شجاعته وتخلى عن مهمته ، ولكن نبي الإسلام لم يطرأ عليه أي تغيير أو تلكؤ مهما صغر . أي إن الحوادث تجري مجرى بحيث لا يبقى فيها للمسلمين أي أمل . في تلك الحالة تنظر الى النبي (ص) فتراه كالجبل الراسخ **﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾** .

في الحقيقة ، لا بد لكم أن تطالعوا تاريخ حياة النبي (ص) من هذه الناحية (وينبغي مطالعتها من جميع النواحي) ليتضح لكم كيف أنه كان يخشى الله ، ولا يخشى أحداً سواه ، ولا يقف في طريقه أي حساب .

من شروط حمل الدعوة الأخرى هو ما يذكره القرآن بصيغ مختلفة . فمرة يقول : **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ﴾** ، ومرة أخرى يقول : **﴿فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾**(٥٢) .

---

(٥٢) سورة الغاشية ، الآية ٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في القرآن امران يردان متقاربين « التذكر والتفكر » .

والتفكر هو محاولة الكشف عن شيء لا تعرفه ، إعمال الفكر للوصول الى ما لا تعرف . والتذكر هو استرجاع ما سبق لك أن عرفته . فما معنى هذا ؟

هنالك أمور كثيرة موجودة في فطرة الإنسان ولكن الإنسان غافل عنها ، فهو بحاجة الى التذكير ليتذكرها .

وبعبارة أخرى ، للبشر حالتان : حالة يكون فيها جاهلاً ، وحالة يكون فيها نائماً . كثيراً ما يحدث ألا نكون على علم بما يدور حولنا ، فنحن مستيقظون ولكننا لا نعلم . ومرة أخرى لا نكون على علم بما يدور حولنا لا لأننا لا نعرف ، بل لأننا نائمون فعلاً ، فالنائم يعرف كثيراً من الأمور ، ولكنه واقع تحت تأثير حالة لا يستطيع معها الإستفادة مما يعرف .

هذا في النوم الحقيقي . إلا أن للبشر نوماً آخر يطلقون عليه اسم (نوم الغفلة) .

فالله في خطابه للرسول (ص) يقول : أيها النبي ، لا تظنن أنك تواجه الجاهل فحسب ، بل إنك تواجه الغافل أيضاً . فاحمل الجاهل على التفكر ، والغافل على التذكر . والناس يغفلون أكثر مما هم يجهلون . إنهم نائمون فأيقظ النيام ، ونبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغافلين ، فإنهم إذا تنبهوا ساروا ، كالقافلة التي أخذت تسير وبقي أحد أفرادها نائماً ، فأيقظه ، وعندئذ سيدرك بنفسه الخطر المحدق به ، ولسوف يلتحق بالقافلة بغير حاجة الى من يدفعه اليها . استنهض مشاعر الناس النائمة ، فبعض الإيمان من يقظة المشاعر النائمة . ولذلك لا يوجد في الإسلام إجبار على الإيمان :

﴿فَذَكِّرْ إنَّما أَنْتَ مُذكِّر لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

و ﴿لا إكراهَ في الدِّين قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾[٥٣] .

ان مسألة ﴿لا إكراه في الدين﴾ قضية قائمة بذاتها جديرة بمن يقوم بشرحها شرحاً مفصلاً ، ولعلني أفعل ذلك في جلسة قادمة إن شاء الله . أما هنا فلا أزيد على بضع كلمات بهذا الشأن فلماذا « لا إكراه في الدين » في الإسلام ؟

أولاً : إن الإيمان ليس مما يمكن فرضه فرضاً . إن ما يريده الأنبياء هو الإيمان ، لا الإسلام الظاهري ، والإيمان لا يفرض ، لأنه اعتقاد وعلاقة وانجذاب . لا يمكن إيجاد الإعتقاد في شخص ما بالقوة . . إذا كان شاب لا يحب فتاة ، والفتاة لاتحب الشاب ، أيستطيع أبواهما أن يحملاهما على أن يحب

(٥٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحدهما الآخر ؟ كيف يفعلان ذلك ؟ أبالضرب والفلقة ؟ أجل ، قد يؤدي ذلك إلى حملهما على القول بأنهما يحبان أحدهما الآخر ، ولكنهما يكونان كاذبين دون أدنى ريب ، فحتى لو كسّروا كل عصي العالم عليهما فلا يمكن إدخال حب أحدهما في قلب الآخر، لأنه مستحيل بهذه الطريقة . إن هناك طريقة أخرى . . إذا شئت أن تدخل الإيمان في القلوب فليس طريقة القوة والإكراه ، بل هو « **الحكمة** »و« **الموعظة الحسنة** » و« **جادلهم بالتي هي أحسن** » .

هنا قد يخطر موضوع الجهاد في الإسلام ومواضيع أخرى من هذا القبيل ، وهذا ما سوف نبحثه في حديث قادم ، إن شاء الله .

ثمة حديث بودي أن أقرأه لكم . جاء في الأخبار أن الإمام علي (ع) كان على المنبر يوماً ، يكرر على الناس ما كان دائماً يكرره عليهم ، وهو قوله في أحدى خطبه : « **فَسْأَلُوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُوني** »[٥٤] . وكان يقول إنه أعرف بطرائق السماء من طرائق الأرض . . أي إن لكم أن تسألوا عن أي أمر يبدو لكم عن السماء والأرض . .

---

(٥٤) سفينة البحار، ج١ ، ص٥٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقام من زاوية المجلس رجل دلت ملابسه وقيافته على أنه من يهود العرب ، فقال بلهجة خشنة « أيها المدعي ما لا يعلم . . » وراح يستهجن قول علي أنه يجيب على كل سؤال ، وأخذ يؤلم بكلامه ، وكأنه تجرأ على ذلك لعلمه أن الخليفة لا يمكن أن يرد عليه بالمثل ، فتململ أصحاب الإمام وهموا بالإقتصاص منه ، إلا أن الإمامَ منعهم ، وقال لهم : « الطيش لا تقوم به حجج الله . . » أي إنه إن كان له ما يسأل عنه فليأت إليه ليسأل ، فإن اقتنع بالجواب فسيخجل من فعلته . أما أذا أردتم أن تقيموا حجة من حجج الله بالضرب والشتم ، فليس هذا سبيله ، بل سبيله اللين واللطف ، لأن المعني بذلك هو القلب والعقل والروح . لا مكان للخشونة عندما تكون القضية قضية دعوة وتبليغ لرسالة الإسلام .

إن الحسين (ع) عندما يكون في مواجهة الأعداء يرفع رأسه عالياً ولن يكون أحد قادراً على إنزاله . ولكنه عندما يواجه أشخاصاً عليه أن يرشدهم ويهديهم ، فإنه يغض الطرف حتى عن إهمالهم وعدم اهتمامهم .

يتحرك زهير بن قيس(*) بقافلته من مكة ، وكذلك يتحرك

(*) زهير بن القين، وليس «قيس» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحسين (ع) ، ويسعى زهير ألا يتلاقى مع الحسين ، أي إنه ينحرف عن الطريق كلما أحس أن الحسين قريب من مكانه لكيلا يتواجها ، قائلاً : إنه لا يريد أن تقع عينه في عين الحسين فيشعر بالحرج . والإمام يعرف ما يدور في خلد زهير ، ولكنه يدرك أن زهيراً في حالة غفلة ، وأنه وإن يكن من شيعة عثمان ، إلا أنه ليس له غرض معين . ومع أنه يظهر عدم الإعتناء بالحسين ، إلا أن الحسين يرى أن عليه أن يرشده ويهديه . واتفق أن اضطر كلاهما للنزول في منزل واحد .

فضرب أبو عبدالله (ع) خيامه في طرف ، وضرب زهير خيامه في طرف آخر . وأرسل الحسين يستدعي زهيراً ، على الرغم من معرفته أنه يتحاشاه . كان زهير وأصحابه قد مدوا الخوان وجلسوا يتناولون الطعام . وفجأة دخل عليهم رسول الحسين يقول : يا زهير أجب أبا عبدالله . يقول أصحاب زهير : لقد أُسقط في يده ، ولم يجد ما يصنع في إجابة الحسين بن علي ابن بنت رسول الله .

كانت لزهير هذا زوجة حصيفة ، لمحت رسول الحسين وهو يدخل الخيمة ويطلب زهيراً لرؤية الحسين ، وعلمت أن زهيراً لم يحر جواباً لا بالإيجاب ولا بالنفي . فأثارت هذه الحالة حمية هذه المرأة المؤمنة ، فتقدمت الى داخل الخيمة وخاطبت

زهيراً قائلة : ألا تخجل يا زهير ! ابن بنت رسول الله يدعوك وأنت تتردد في إجابته . فنهض زهير فوراً وذهب الى الحسين (ع) .

إننا لا نعرف الكثير مما جرى بينهما ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن زهيراً الذي دخل على الحسين خرج من عنده بروح جديدة . فزهير التعبان الكسلان الذي كان يشعر بالضجر ويتحاشى لقيا الحسين وذهب اليه مقطباً عبوساً ، خرج من عند الحسين ضاحك الوجه بشوشاً مسروراً .

يقول المؤرخون : إن أبا عبدالله ذكره بما كان منسياً في أعماق روحه . أي إنه أيقظ نائماً من رقدته . عندما يكون ثمة تبشير ، أو ثمة انذار ، ثمة تذكير وتذكر ويقظة ، تتحول الروح الكئيبة الى تجسيد النشاط والطاقة . . لذلك ما إن رجع الى خيمته حتى أمر بشد الرحال وأخذ يوصي : أموالي كذا ، وأطفالي كذا ، وعهد بمن يوصل زوجته الى أبيها . كان جلياً أنه يودعهم في رحلة لا عودة منها .

وقد أدركت زوجته العارفة هذا قبل غيرها ، فجاءت إليه وأمسكت بأذياله وبكت وهي تقول : أرأيت يا زهير كيف أنك قد بلغت مقاماً رفيعاً ، فقد أدركت أنك سوف تذوق الشهادة في ركاب الحسين بن فاطمة ، وسيكون شفيعك يوم القيامة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأحذر يا زهير أن تفعل شيئاً يحول بيني وبينك يوم القيامة . إنني ألوذ بك لعل الزهراء تشفع لي يوم القيامة .

إن هذا التذكر وهذه اليقظة أوصلا زهيراً الكاره لملاقاة الحسين الى حيث أصبح في صدر أصحاب الحسين ، حتى أن الحسين أعطاه الميمنة يوم العاشر من محرم . لقد أبدى زهير من كرم المحتد والتفاني ما حدا بالحسين أن يرثيه على رأس من رثى من أصحابه عندما وقف وحيداً وهو يرى أصحابه وأهل بيته مجندلين حوله كالأضاحي .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة النبوية وتقدم الإسلام السريع

﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٥٥) .

الإسلام يشبه المسيحية من حيث خروجه من موطنه وتوسعه في آفاق جديدة . فقد ظهر في جزيرة العرب ، ونراه اليوم له اتباع في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا يمثلون مختلف عناصر البشر ، حتى أن هناك إحساساً بأن المسيحيين يحاولون إخفاء عدد المسلمين في العالم ، وذلك لأن معظم كتبنا تستند على إحصاءاتهم ، وقد يكون عدد المسيحيين أكثر ، إلا أن في

(٥٥) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسـلام خصـوصيـة من حيث التـوسـع ليست مـوجـودة في المسيحية ، وهي سرعة انتشار الإسلام .

لقد كانت المسيحية بطيئـة في الإنتشار بـالمقارنـة الى سرعة انتشار الإسلام ، سواء في موطنه جزيرة العرب أو خارج جزيرة العرب في آسيا وأفريقيا أو في مناطق أخرى . فلا مندوحة من التساؤل : ما الذي جعل الإسلام سريع الإنتشار ، الى هذا الحد ؟ حتى أن بعض الفرنجة قد أشار الى ذلك ، ومنهم الشاعر الفرنسي المعروف (لامـارتين) الذي قال : إذا أخذنا ثلاثة أمور بنظر الإعتبار ، فلا يبلغ أحد ما بلغه نبي المسلمين :

الأول : فقدان الوسائل المادية . فهذا رجل يظهر ويدعي دعوة بغير أن تكون له أية قدرة أو قوة ، بل إن أقـرب أقربـائه يناصبونه العداء . إنه يقوم بـالدعـوة بمفرده ، ويبـدأ من نفسه وتتبعه زوجته ، ويؤمن به طفل يعيش معه في بيته (علي بن أبي طالب) ، ثم يؤمن به آخرون بالتدريج ، ويظل يعاني الصعاب والشدائد .

الثاني : سرعة الإنتشار وعامل الزمن .

الثالث : عظم الهدف .

فلو أخذنا بنظر الإعتبار عـظم الهدف وفقـدان الوسـائل وسرعة انتشاره على الرغم من الإفتقار الى الوسائل . . مع بلوغ الهـدف ، فيكـون قـول لامـارتين صحيحـاً في أنـه ليس لنبي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمين نظير في العالم .

أما انتشار المسيحية وتقدمها في العالم فقد حصل في مئات السنين بعد المسيح .

إننا سنبحث علل هذا التقدم خلال تقدمنا في الكلام حول السيرة النبوية .

إن القرآن يبين هذا ، ويؤيده التاريخ أيضاً تأييداً تاماً ، وذلك أن من أسباب ذلك هو « السيرة النبوية » أسلوب حياة النبي (ص) ، أخلاقه وسلوكه وطريقة نشره الدعوة . فهذه كلها كان لها تأثير كبير في نشر الدعوة . بديهي أنها لم تكن السبب الوحيد ، فالقرآن نفسه الذي هو معجزة النبي (ص) كان له تأثيره العميق الجاذب المثير ، وكان السبب الأول في نفوذ الإسلام وانتشاره في كل مكان . فإذا تجاوزنا القرآن ، يكون العامل الثاني هو سيرة رسول الله (ص) وشخصيته وخلقه وسلوكه وأسلوب قيادته وإدارته . وحتى بعد وفاته ظلت سيرته التي ذكرها التاريخ بعد ذلك دافعاً مهماً في سرعة انتشار الإسلام .

﴿فَبِما رَحْمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

أي إن أخلاقك عامل جذب المسلمين وجلبهم . وهذا يُعيّن أن من شروط الزعيم القائد الذي يدعو الناس الى الإسلام أن تكون أخلاقه الخاصة لينة عطوفاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينبغي أن أوضح هذا الجانب بعض الشيء لكي أكون قد أجبت على سؤال قد يدور في أذهان بعضهم فيما يتعلق بأخلاق النبي (ص) . فنحن عندما نقول : إن اخلاقه لينة عطوف ، إنما نقصد أنها كذلك في الأمور الفردية والشخصية ، لا في المسائل المبدئية الكلية التي كان فيها أشد ما يكون صلابة . فقد يؤذي بعضهم شخص النبي (ص) بقول أو بإهانة أحياناً ، وقد يخالف بعضهم التعاليم الإسلامية ، بسرقة مثلاً . فما القصد من قولنا : إن النبي كان هيناً ؟ أيعني ذلك أنه إذا شرب أحد الخمر كان النبي يغض الطرف عنه ؟ ولا يقيم الحد عليه ؟ ولا يعاقبه ؟ هذه المخالفة ليست مما يتعلق بشخص النبي نفسه ، بل بتعاليم الإسلام . . أو إذا سرق أحدهم . فهل كان النبي يتساهل معه ولا يقتص منه ؟ أكان الأمر هكذا ؟ كلا ، أبداً ففي الأمور الشخصية والسلوك الفردي كان النبي (ص) ليناً متساهلاً ، ولكنه في الإلتزامات والمسؤوليات الإجتماعية كان في منتهى الشدة والخشونة .

وإليكم هذا المثال : يزعم أحد اليهود أن النبي مدين له ببعض المال ، فيسد عليه الطريق مطالباً إياه بتسديد الدين . فيقول له النبي : إن إدعائك هذا غير صحيح ، وإني لست مديناً لك بشيء ، فاتركني أذهب الى حال سبيلي ، ثم إني لا أحمل مالاً معي فيرد اليهودي : كلا ، لا أدعك تنقل قدماً عن قدم . كان النبي ذاهباً للصلاة إلا أن هذا اليهودي كان يصر على ألا يدع

النبي يتحرك قبل أن يـدفع لـه دينه . وكلمـا أظهر النبي اللين واللطف إزداد اليهودي فظاظة وخشونة ، حتى يبلغ الأمر بالرجل أن يأخذ بخناق النبي ويختطف عباءته من فوق كتفه ويلفها حول رقبته بشدة بحيث يظهر أثرها على رقبته ، ويسحبه في الطريق .

وإذا يستبـطىء المصلون قدوم النبي ، يقـومون للبحث عنه ، فيرون المشهد المذكور ، ويحاولـون التدخـل ، إلا أن النبي يمنعهم من ذلك ، ويزداد في ملاينة اليهودي وملاطفتـه حتى يحمله على النـطق بالشهـادتين ، ويعترف لـه بالنبـوة ، ويقول : إن تحملك هذا لا يقدر عليه الناس العاديون ، بل هو من شيم الأنبياء .

وثمة مثال آخر عند دخول النبي (ص) مكة ، والظاهر أنه كان عند فتح مكة . . أمرأة من أشراف قريش ترتكب جـريمة السرقة ، والإسلام يقضي بقطع يد السارق . وقد ثبتت السرقة على المـرأة واعترفت هي بهـا ، فكان لا منـدوحـة من إنـزال القصاص بها . وهنا تبدأ الوساطـات بالعمـل ويتقدم الـوجهاء بالتوصية والرجـاء من رسول الله (ص) ألاّ يقيم الحـد عليها ، فهي ابنة فلان وهو شخص محترم . وإن إنزال القصاص بابنته سوف يهدر كرامة القبيلة كلها .

فيـرد النبي (ص) عليهم : لن يكون هـذا أبـداً . كيف يمكن ان اتغاضى عن إقامة حدود الإسلام ؟ ! لو لم تكن هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرأة من النخبة ، ولو لم يكن لها قبيلة وعشيرة ، لكنتم جميعاً تطالبونني بإنزال القصاص بها . فالفقير الذي قد يسرق لفقره يجب أن ينال العقاب ، ولكن هذه المرأة ذات الأصل الشريف ينبغي أن تعفى من العقاب لأن ذلك يهين كرامة أهلها . لا يمكن تعطيل حدود الله .

ورفض رسول الله (ص) الوساطات والشفاعات . إنه لم يكن يلين مطلقاً في قضايا المبدأ ، ولكنه على العكس من ذلك كان في منتهي اللين والتعطف في القضايا الخاصة ، كثير العفو فيها .

كذلك كان الإمام علي (ع) ، فهو في المسائل المبدئية العامة لم يكن يتقبل أدنى تراجع عن الحق ، على العكس منه في المسائل الفردية حيث كان متعاطفاً بشوشاً ، بخلاف أصحاب التدين الظاهري الذين يريدون ثمن تدينهم من الآخرين ، فأنت لا ترى على وجوههم سوى التقطيب والعبوس ، وإنه ليعسر عليك أن تعثر على البسمة على وجه أحدهم ، وكأن من لوازم التقوى والتقدس أن يكون المرء عبوساً قمطريراً . فلمَاذا ، مع أن « **المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه** » ؟

إن على المؤمن أن يخفي كل أحزانه ، دنيوية كانت أم أخروية ، فردية أم اجتماعية . . في قلبه ، وأن يواجه الناس بوجه بشوش باسم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان علي (ع) يواجه الناس بوجه بشوش وملامح متفتحة ، كمـا كان يفعـل رسـول الله (ص) . كـان يمـازح النـاس دون الوصول إلى الباطل، مثلما كان يفعل رسول الله (ص) . بـل إن من المعايب التي ألصقوها بعلي (ع) كخليفة (لأنهم لم يستطيعوا أن يلصقوا به عيباً حقيقياً) هو أنه ضاحك الوجه ينزع الى المزاح ، وإن من يكون خليفة المسلمين يجب أن يكون عبوس الوجه ، مقطباً ، يخافه الناس كلما نظروا إليه .

فإذا كان هـذا المنطق سليمـاً فلماذا لم يكن رسـول الله كذلك ؟ وهو الذي قال فيه الله سبحانه :

﴿فَبِما رَحْمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلـوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

إذن فالأسلوب المنطقي الـذي يرتضيـه الإسلام للزعـامة والقيادة هو اللين وحسن الخلق ، لا العبوس وخشونة الطبع كما يصفه الإمام علي (ع) : « **فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والإعتذار منها** »[٥٦] .

فقد أعطى أبو بكر الخلافة الى من اتسمت طبيعته بالخشونة التي يخافها النـاس (شخص عبوس مثـل المتظاهـرين عندنـا بالتقدس) ، ذلك الشخص الخشن العبوس الذي كان ابن عباس

---

(٥٦) نهج البلاغة ، الخطبة الشقشقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول عنه : لم أجرأ على طرح المسألة الفلانية ما بقي عمر حياً ، وكنت أقول : درة عمر أهيب من سيف الحجاج . حسن ، لماذا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ؟ .

كان علي (ع) في المسائل الخاصة ليناً ، حسن الخلق ، ضاحكاً ، يحب المزاح ، ولكنه في المسائل العامة الكلية المبدئية كان جاداً صلباً لا ينثني عن الحق قيد شعرة .

هذا أخوه عقيل ، يأتيه ويطلب منه أن يرى أطفاله وقد اكفهرت وجوههم من الجوع ، وأنه مدين وجائع ويريد عوناً منه . فيقول له الإمام : سأعطيك من نصيبي من بيت المال . فيقول عقيل : وكم هو نصيبك حتى تستطيع أن تعينني منه ! قل لهم أن يعطوني من بيت المال .

هنا يأمر الإمام أن يحموا حديدة ويضعوها أمام عقيل . ولما كان عقيل كفيفاً فقد ظن أنه كيس من النقود ، ولكنه ما إن يمسها حتى تحترق أصابعه . ويقول عقيل نفسه : فصدر مني خوار كخوار الثور من شدة الألم . وعندئذ خاطبه الإمام قائلاً : « **ثكلتك أمك يا عقيل ، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه ؟** »(٥٧) . ان علياً الذي كان بشوشاً محباً للمزاح في الأمور الخاصة وليناً فيها ، نراه

(٥٧) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بهذه الخشونة والصلابة في امور المجتمع المبدئية ، وبعكسه كان عمر الذي كان خشناً في الأمور الخاصة ، حتى أنه كان يعامل زوجته وابنه وأصحابه بخشونة ، ولكنه في الأمور المبدئية كان كثير الليونة .

فمسألة التبعيض في سهام بيت المال ، أي تعيين حصص المسلمين والتفاوت فيها على أساس من المحسوبية والمنسوبية ، قد بدأت على عهد عمر . كان يتحيز في القضايا العامة ، بخلاف سيرة رسول الله (ص) ، ولكنه كان خشناً في القضايا الخاصة . بينما كان النبي (ص) وعلي (ع) صلبين في الأمور العامة وليّنين في الأمور الخاصة .

يقول القرآن ، استمراراً لتلك الآية :

﴿فَاغْفِرْ لَهُمْ ، وَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ .

إن تعلق المسلمين وشغفهم بالنبي الكريم كان ناشئاً من كرم أخلاقه الذي لم يكن له مثيل بين المسلمين . فهذه امرأة يولد لها ولد ، فتأتي به الى رسول الله وتقول : يا رسول الله ، بودي أن تؤذن وتقيم في أذن ولدي . وأحب أن أراك تجلس ولدي في حجرك وتنظر إليه حتى ينال البركة من نظرتك ، وأن تدعو له .

وهناك أحاديث ، يرويها السنة والشيعة ، أن أمثال هؤلاء الأطفال كانوا أحياناً يبولون في حضن النبي (ص) ، فكان ذلك

مدعاة لانزعاج آبائهم وأمهاتهم ، فيسرعون لكي يستردوا أبناءهم ، ولكن النبي كان يمنعهم ويقول : إنهم أطفال ، فلا تفعلوا ما يقطع تبولهم فيمرضون . وهذا ما أثبته اليوم علم النفس والطب الحديث ، إذ أن الطفل إذا كان يتبول في مكان غير مرغوب فيه فنقل وهو على تلك الحالة الى مكان آخر ، أو صرخ في وجهه ، فإنه قد يصاب بأمراض لن تفارقه طوال حياته ، لأن الطفل في ذلك الوضع يتعرض لحالة من الهيجان والضياع لأنه يرى عمله طبيعياً ، ولكنه إذ يواجه غضب أبويه وانفعالهما تنتابه تلك الحالة النفسية من الإضطراب والشعور بالذنب . فإلى هذا الحد كان النبي (ص) لينا .

ثم نقرأ : ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ .

وهذا أيضاً من مظاهر ليونة النبي (ص) وحسن أخلاقه . إن المطلوب منه أن يستشير المسلمين في الأمور . عجباً ، أينبغي على النبي أن يستشير ؟ إن المرء قد يستشير لحاجته الى طلب المشورة . ولكن النبي لا تكون به حاجة الى المشورة من حيث المبدأ ، إلا أنه لكي لا يجعل من عدم المشورة سنة متبعة فيأتي كل حاكم ويطلب من الناس الطاعة العمياء ، كان يشاور الناس . كذلك كان يفعل علي (ع) . انهم لم تكن بهم حاجة الى المشورة ، ولكنهم لكي يعلموا الآخرين عليها اولاً ، ولكي يمنحوا اتباعهم الشخصية والمكانة ثانياً ، كانوا يشاورونهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف ترى يكون شعور اتباع لا يستشيرهم قائدهم في امورهم ، حتى وان يكن رأيه الخاص صحيحاً مائة بالمائة ؟ لا شك انهم يرون انفسهم مجرد ادوات لا غير . ولكنهم اذا وجدوا أنفسهم يساهمون في تسيير الأمور ، وأن لهم رأياً يؤخذ به ، لازدادوا ثقة بأنفسهم وارتفعت مكانتهم في أعينهم ، ولأصبحوا خير أتباع .

﴿وَشاوِرْهُمْ فيِ الأَمْرِ فَاذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾ولكن عليك ـ أيها النبي ـ أن لا تجعلك المشورة ذا قلبين كسائر الناس . فإذا شاورت واتخذت القرار ، فيجب أن يكون القرار قاطعاً . . . المشورة قبل القرار ، والبت بعد القرار ، والشروع بالعمل بعد الإتكال على الله . تقدم وأنت تستعين بالله .

***

إن الأمور التي ذكرتها تختص بنشر الدعوة وإبلاغ الرسالة ، وقلنا : إن من مبادىء ذلك اللين والرفق والعطف ، وتجنب كل خشونة وغلظة .

إن موضوع القيادة والإدارة موضوع قائم بذاته في السيرة النبوية ـ إذا شئنا أن نحلل سيرته (ص) من هذا الجانب ، الذي بينا شيئاً منه في ما سبق ـ ولعلني أقوم بذلك في مناسبة أخرى . إلا أن بحثنا في الوقت الحاضر يتعلق بنشر الدعوة وإبلاغ الرسالة .

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن مسألة تجنب الخشونة في نشر الدعوة تعتبر من أهم الشروط المطلوبة . أي إن الدعوة نفسها ينبغي ألا تكون مقرونة بالفظاظة والخشونة ، ولا بالإكراه والإجبار . وهذا الموضوع ـ أيضاً ـ موضوع قائم بذاته ، إذ كثيراً ما يتردد السؤال عما إذا كان الإسلام يستند في نشر دعوته على القوة ، وهذا ما سعى بعض رجال المسيحية الى توكيده وبثه في العالم ، حتى أنهم أطلقوا اسم « دين السيف » على الإسلام . أي إن الإسلام دين لم يستقم إلا بالسيف .

لا شك أن الإسلام دين السيف أيضاً ، وهذا من كماله ، لا من نقصه . ولكن الذين يقولون « الإسلام دين السيف » إنما يريدون أن يظهروا أن تعاليم نبي الإسلام كانت تقول « ادع بالسيف » على الرغم من أن القرآن يقول :

﴿ٱدْعُ الى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

وإن النبي كان كذلك عملياً . . إنهم يخبطون خبط عشواء ويقولون : إن الإسلام دين يدعو بالسيف . بل إنهم في بعض كتبهم يوجهون الإهانات الى نبي الإسلام ، فيرسمون كاريكاتوراً لرجل يحمل القرآن في يد والسيف في اليد الأخرى ، يقف على رأس أناس يريدهم أن يؤمنوا بالقرآن أو يضرب أعناقهم . وهناك الكثير من أمثال ذلك وضعه رجال الدين المسيحيون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا أكتمكم القول بأننا نحن المسلمين نردد أحياناً أقوالاً لا هي تتطابق مع التاريخ ولا مع القرآن ، بل تنسجم مع أقوال الأعداء . أي أننا نأخذ قولاً له جانب صحيح فنعبر عنه بصورة أخرى لنضع بأيدينا الأسلحة بيد الأعداء . فهناك مثلاً من يقول : إن الإسلام قد انتشر بفضل مال خديجة وسيف علي بن أبي طالب ، أي بالذهب وبالقوة .

فكيف يكون الدين ديناً وهو ينتشر بالذهب والقوة ؟ !

أفي القرآن ما يشير الى أن الإسلام قد تقدم بالذهب والقوة ؟ !

أقال علي (ع) يوماً : إن الإسلام قد انتشر بسيفه وبذهب خديجة ؟ !

ما من شك في أن أموال خديجة قد أفادت المسلمين ، ولكن هل صرفت تلك الأموال لنشر الدعوة ؟ كانت أموال خديجة كثيرة ، فهل دفعت هذه الأموال لأشخاص لكي يسلموا ؟ أفي التاريخ شيء من هذا ؟ لا أحسبكم واجدين شيئاً من ذلك في التاريخ .

عندما كان النبي وأتباعه يمرون بظروف معاشية صعبة ، وضعت السيدة خديجة أموالها تحت تصرف المسلمين لسد حاجاتهم اليومية ، وليس لكي يرشو النبي (والعياذ بالله) الناس للدخول في الإسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم إن ذلك المال لم يكن بذلك المقدار الذي ينفع في أمثال ذلك الغرض . صحيح أنها كانت تعد من أصحاب الثروات في مكة الصغيرة ، ولكنها بالطبع لم تكن تبلغ مبلغ أصحاب الملايين والبلايين في طهران اليوم . وصحيح أنه كان في مكة عدد من التجار وأصحاب رؤوس الأموال ، ولكن أصحاب رؤوس الأموال في مكة كانوا ـ مثلاً ـ أشبه بأصحاب رؤوس الأموال في نيشابور ، لا مثل أصحاب رؤوس الأموال في طهران ومشهد . . .

لولا أموال خديجة فلربما كان الفقر والإملاق يقضيان على المسلمين . . أموال خديجة كان لها فضل إدامة حياة المسلمين ، لا أنها استخدمت لرشوة الناس لإدخالهم في الإسلام . إن أموال خديجة أبقت على رمق المسلمين .

كما أن سيف علي (ع) لا شك قد خدم الإسلام ، ولولا سيف علي لكان مصير الإسلام غير هذا ، ولكن علياً لم يصلت سيفه فوق رقبة أحد طالباً منه الدخول في الإسلام ، إنما ارتفع سيف علي حينما كانت سيوف أخرى قد ارتفعت لتقتلع الإسلام من جذوره .

ويكفي أن نتذكر حربي بدر وأحد ، وكذلك حرب الخندق ، حيث استعمل علي سيفه . فاين استعمل علي سيفه في غير تلك الحرب .

في حرب الخندق كان عشرة آلاف من المشركين ومؤيديهم يحاصرون المسلمين الذين كانوا يعانون ظروفاً اجتماعية واقتصادية قاسية ، ولم يكن أمامهم مجال للعبور . فحفروا خندقاً حولهم . . بديهي أن الخندق لم يكن يحيط بالمدينة كلها ، لأن المدينة تحيط بها الجبال والمرتفعات بحيث لا تحتاج الى حفر خندق . لقد حفر المسلمون خندقاً بين جبلين في شمال المدينة ، حيث كانت قريش عازمة على الهجوم ، لأن ذلك كان مدخلهم الوحيد .

كان المسلمون على جانب من الخندق وكان المشركون على الجانب الآخر منه ، فيعثر عمرو بن عبدود على نقطة ضيقة جداً في الخندق ، فيقفز هو وبعض الفرسان بخيولهم الى طرف الخندق الآخر . يقف عمرو أمام المسلمين وينادي هل من مبارز ؟ فلا يجرؤ أحد من المسلمين على مواجهته ، لأن مبارزته تعني الموت المحقق . فيقوم علي (ع) وهو ابن نيف وعشرين سنة ، ويستجيز رسول الله في مبارزته . فلا يجيزه النبي ويطلب منه العودة الى مكانه . إنه يريد أن **يلقي الحجة على الناس جميعاً** . وفي غضون ذلك يظل عمرو بن عبدود جائلاً بفرسه ويطالب بمن يبارزه ، فلا يجيبه إلا علي بن أبي طالب ، لأن الآخرين كانوا يهابونه . وفي المرة الرابعة أو الخامسة ينشد رجزاً أغضب المسلمين حتى النخاع : لقد بح صوتي من كثرة طلب المبارزة بغير أن يظهر بينكم رجل واحد . أيها المسلمون ، ألم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقولوا أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ؟ أليس فيكم من يقدر على قتلي فيرسلني الى جهنم ، أو أقتله فأرسله الى الجنة ؟

ونهض علي (ع) من مكانه . وقال عمر معتذراً عن المسلمين : يا رسول الله ، إذا كان أحد من المسلمين لا يتقدم فله الحق ، لأن هذا عمرو بن عبدود الذي يقاس بألف فارس ، فلا نجاة من الموت لمن ينازله . . . ثم يصل الأمر الى حيث يقول رسول لله : « **لقد برز الإسلام كله الى الشرك كله** » وذلك عندما يجندل علي (ع) عمرو بن عبدود وينقذ الإسلام .

فإذا قلنا : لولا سيف علي لما كان الإسلام ، فإننا لا نعني أن سيف علي كان مصلتاً على الأعناق يحملهم على الإسلام حملاً ، بل نعني أنه لولا سيف علي في الدفاع عن الإسلام ، لإجتث المشركون جذور الإسلام من أصولها ، مثلما يمكن القول بأنه لولا مال خديجة لقضى الفقر على المسلمين : فأين هذا من ذاك الهراء !

إن الإسلام دين السيف بمعنى أن سيفه مستعد دائماً للدفاع عن أرواح المسلمين وأموالهم وأرضهم .

إن العلامة الطباطبائي (رحمه الله) يتناول هذا الموضوع على خير وجه في تفسيره لآيات القتال في سورة البقرة وآية :

﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ**﴾فالإسلام يرى أن التوحيد من خصائص البشرية ، فهو يدافع عنه ـ حيثما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجد خطراً يحيق بـه ـ ويسعى لإنقاذه ، لأن التـوحيد من أعـز الحقائق الإنسانية . إن الذين يبحثون في الحرية لا يعلمون أن التوحيد لا يقل عن الحرية منزلة ـ على الأقل ـ إن لم يكن أرفع .

لقد سبق لي أن كررت هذا التساؤل : إذا دافـع أحد عن حياته فهل ترون ذلك صحيحاً أم لا ؟ إذا تعرض عرض امرىء للإعتداء فعليه أن يدافع عنه . إذا تعرض مال أحد للخطر فعليه أن يدافع عنه . إذا اعتدي على أرض قوم فعليهم أن يدافعـوا عنها . إذا تعرضت ثروة شعب مظلوم وعرضه وأرضـه لعدوان ظالم جائر ، فهل يصح أن يقوم طرف ثالث بالمشاركة في الدفاع عنه ،أم لا يصلح ؟ إنه لا يصـح فحسب ، بل هـو أفضل من دفاعه عن نفسه أيضاً ، فالمرء إذا دافع عن حريته يكون قد دافع عن نفسه . ولكنه إذا دافع عن حرية الآخرين يكون قد دافع عن مطلق الحرية ، وهذا أجل وأرفع . فمثلاً إذا جاء أحد من أوروبا ليدافع عن الفيتناميين في فيتنام ويشد أزرهم ، فإنـك لا شك تكون أكثر إجلالاً وإكباراً له من تقديرك للڤيتنامي الذي يدافع عن نفسه ، وتقول : ما أعظمه من رجل يترك وطنه ليدافع عن حرية الآخـرين وعن أرواحهم وأموالهم وأرضهـم ! وهـذا أرفع مـائة مرة ، فلماذا ؟ لأن الحرية مقدسة .

إذا رأينا العلم معرضاً للخطر في مكـان ما ، وقـام إنسان يحارب دفاعاً عنه على اعتبار أن العلم من الأمور المقدسة عند

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البشر ، فكيف يكون هذا ؟ هذا أيضاً يكون خليقاً بالإجلال والأكبار والتقدير .

فكيف إذا حارب من أجل السلم ؟ إنه لكذلك . والتوحيد حقيقية . . ليست ملكي ولا هي ملكك ، ولا ملك أي فرد بعينه . إنها ملك البشرية . فإذا تعرض التوحيد الى الخطر في مكان ما ، فهذا يعني أن هناك عاملاً بذاته له اليد في إيجاد ذلك الخطر ، بالنظر لأن التوحيد جزء من فطرة الإنسان ، وإن الفطرة الإنسانية لا يمكن أن تقود البشر الى ما يعرض التوحيد للخطر . لذلك ينبري الإسلام ليصدر أمره لإنقاذ التوحيد ، ولكن إنقاذ التوحيد لا يكون بإدخاله بالقوة في قلوب الناس ، بل يكون بإزالة العوامل التي عرضت وجود التوحيد الى الخطر . فإذا زالت تلك العوامل ، تعود فطرة الإنسان الى موضعها الطبيعي في النزوع الى التوحيد . ومن تلك العوامل التقاليد ، والتلقين ، ومعابد الأصنام ، وغيرها مما يحول وجودها بين الإنسان والتفكير في التوحيد . فإذا ضربت هذه وهدمت وأزيلت ، تحرر فكر الإنسان بذاك التعبير يورده القرآن بشأن إبراهيم (ع) يوم أن خلت المدينة من أهلها وخلا بيت الأصنام . . فراح يحطم الأصنام ويضع الفأس على عاتق كبيرهم . وعندما عاد الناس ليلاً الى مدينتهم وبيت أصنامهم وجدوها محطمة كلها ، عدا كبيرهم الذي علق الفأس على كتفه ، مما يدل على أنه هو الذي حطم سائر الأصنام . ولكن فطرة الإنسان لا تقبل هذا ، فمن ذا الذي فعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك بآلهتهم ؟

﴿قَالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إبْراهِيمُ﴾

﴿ قَالُوا أأَنْتَ فَعَلْتَ هَذا بِآلِهَتِنا يَا إبْراهِيمُ؟﴾

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كانُوا يَنطِقُونَ﴾ أي انهم اذا كانوا لا ينطقون فما الذي يدعوكم الى عبادتهم ؟

﴿فَرَجعُوا إلى أَنْفُسِهِمْ﴾(٥٨)

لقد عادوا الى أنفسهم . ان العقيدة التي لا تمنح الإنسان فكراً ، ليست سوى تقليد وتلقين . . إنها قيد تقيد به أيدي البشر وأرجلهم .

---

(٥٨) سورة الأنبياء ، الآيات ٦٠ - ٦٢ - ٦٣ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حياة محمد (ص) وأقواله

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥٩] .

اليوم يصادف ذكرى ميلاد رسول الله (ص) وكذلك ذكرى ميلاد الإمام السادس ، الإمام جعفر الصادق (ع) ، فهو إذن يوم مضاعف في أعياد المسلمين ، لأنه عيدان في يوم واحد حيث تقع فيه ولادتان عظيمتان .

وبهذه المناسبة ليس بالوسع إلا توجيه النقد الى أنفسنا . فعلى الرغم من أن هذا اليوم عندنا ـ نحن المسلمين ـ يوم ولادة نبينا الأكرم ، وعندنا ـ نحن المسلمين الشيعة ـ يوم ولادة إمامنا

(٥٩) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصادق ، فإن المشاعر التي نبـرزها ـ نحن الشيعـة ـ في هذا اليـوم ، لا تضاهي مـا يبرزه المسيحيـون بمناسبـة عيد ميـلاد المسيح (بل ولا تتناسب معه) ولا هي تبلغ ما يقوم به إخواننا أهل السنة بهذه المناسبة .

تعلمون أن المسيحيين يحتفلون بعيد ميلاد المسيح لعدة أيـام احتفـالاً رسميـاً بحيث أن أثـار ذلـك تـظهـر بيننـا نحن المسلمين .

وفي دنيا التسنن فإن أطول عيد يحتفلون به ويكاد يـوازي احتفالنا بعيد نوروز وتعطيلنا فيه ، هو الإحتفال بعيد ميلاد النبي الكريم (ص) فيتمتعون فيه بأطول عطلة تمتد الى بضعة أيام . إنهم بالطبع يحتفلون بهذا العيد في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ، أي خمسة أيام قبل اليوم السابع عشر من الشهر والذي نعتبره ـ نحن ـ يوم ولادة الرسول (ص) . فهم يبدأون من اليوم الحادي عشر بالعيد ، والظاهر أنه يستمرون فيه أي ما بعد السابع عشر منه بخمسة أيام أيضاً . إن ما يعتبر عندنا أيام عيد النوروز ، أي العيد الطويل العام ، هو عند أهـل السنة عيـد ميلاد النبي الكريم (ص) .

ولكن الإنتقـاد الذي لا يسعني إلا أن أوجهـه إلينا ـ نحن الشيعة ـ هو أن ذكرى ميلاد الرسول تأتي وتروح بغير أن يحس الكثيرون منا أن هذه الذكرى قد مرت بهم أصلاً . ولولا العطلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسمية وغلق البنوك والدوائر الرسمية وخروج الموظفين لما ظهر لهذا العيد أقل أثر في المجتمع ، هذا على الرغم من أنه عيد مضاعف بالنسبة لنا . فلماذا كان الأمر هكذا ؟ لا أعلم !

في نيتي أن أقدم بحثاً موجزاً عن تاريخ حياة الرسول (ص) ضمن الحدود التي تنفع الطلاب الشباب ، وكذلك الطلاب اللذين ليست لديهم معلومات وافية حول ذلك . ثم أخصص كلامي ببعض من أقوال الرسول الكريم ، وبتفسير بعضها .

يتفق الشيعة والسنة على أن ولادة نبي الإسلام كانت في شهر ربيع الأول . . في الثاني عشر منه حسب أقوال أكثرية أهل السنة ، وفي السابع عشر منه حسب رأي الشيعة ، باستثناء الشيخ الكليني ، صاحب كتاب الكافي ، الذي يرى أن اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول هو يوم ميلاد النبي (ص) .

في أي فصل ولد رسول الله ؟ في فصل الربيع . فقد جاء في بعض الكتب أنه ولد في فصل الربيع . وقد حسب بعض العلماء حسابهم ليروا في أي يوم من أيام السنة الشمسية كانت ولادته ، فقالت حساباتهم : إن اليوم الثاني عشر من ربيع الثاني من تلك السنة قد صادف اليوم العشرين من نيسان وهذا يصادف اليوم الحادي والثلاثين من شهر فرور دين ، وإن السابع عشر من ربيع الأول يصادف اليوم الخامس من أردبهشت .

وفي أي يوم من أيام الإسبوع كانت ولادته ؟ يرى الشيعة أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولد في يوم الجمعة ، بينما أكثر أهل السنة يقولون : إن ولادته كانت في يوم الإثنين .

وفي أية ساعة من ساعات اليوم كـانت ولادته ؟ لعـل من المتفق عليه أن ولادته كانت بعد طلوع الفجر ، بين الطلوعين .

إن تاريخ حياة رسول الله (ص) تـاريخ عجيب . أبـوه هو عبدالله بن عبد المطلب ، ذلك الفتى المبـرز اللامـع في كل أرجاء مكة ـ بصرف النظر عن حكاية محاولة ذبحه إيفاء بنذر وغير ذلك ـ كان عبدالله وسيماً ، مديد القامة ، مؤدباً صاحب كياسة وتعقل ، تتمناه فتيات مكة زوجاً ، ولكنه يتزوج آمنة بنت وهب ذات صلة القربى بقبيلته . ويعزم على السفر الى الشـام ولـما يمضي على زفافه أكثر من أربعين يوماً ، في سفرة تجارة على ما يظهر . وفي العودة يعرج على المـدينة ، حيث أقـرباء امـه . فيتوفاه الله هناك ، وما يزال النبي الكريم في بطن أمه ، فيولد محمد (ص) يتيماً ، ليس له من حنان الأب نصيب .

كـان من المتعارف عنـد العرب أن يعهـدوا بأبنـائهم الى المراضع في البوادي . وإذ تأتي حليمة السعدية من البادية الى مكة ، يعهد إليها بإرضـاع محمد . ولهـذه المرضعـة وزوجها حكايات مسهبة عن هذا الرضيع ، وكيف أنه بحلوله في بيتهما حلت معه البركة عليهما من السماء والأرض . . ويظل الطفل أربع سنوات بعيداً عن أمه وجـده وقومـه في مكة ، يعيش في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البادية مع البدو وعند مرضعته .

بعد ذلك يسترجعونه من المرضعة الى حضن أمه الحنون ، تلك الأم التي فازت بزوج مثالي هو عبدالله الذي افتخرت به يوم تزوجته على بنات مكة ، ولكنها تفقده وابنه مايزال جنيناً في بطنها . فامرأة هذا مبلغ حبها وتعلقها بزوجها الراحل ، لا شك أن ابنها منه يكون هو الذكرى العظيمة لذاك الزوج الحبيب ، وترى فيه كل آمالها التي علقتها على أبيه من قبل . وما دامت آمنة قد عزفت عن الزواج بعد عبدالله ، فإن عبد المطلب ، جد محمد ، يتكفل به وبأمه معاً .

وتطلب آمنة الإذن يوماً من عبد المطلب لتزور أقاربها في المدينة مع ولدها ، وتتحرك القافلة بهما مع وصيفتها أم أيمن . وهذه هي السفرة الأولى التي يقوم بها النبي (ص) الى المدينة وهو في الخامسة من عمره . وعند العودة من المدينة الى مكة ، تمرض آمنة في منزل يقال له (الأبواء) وهو ما يزال باقياً لحد الآن ، فتضعف عن الحركة ويتوفاها الله . ويشهد الطفل وفاة أمه في الطريق ، حيث يتم دفنها ، ويعود الى مكة مع أم أيمن ، تلك المرأة الوفية التي غدت بعد ذلك حرة ، ولكنها ظلت في خدمة رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين الى أن ماتت ، حتى أن الرواية المعروفة التي ترويها السيدة زينب تسندها الى أم أيمن هذه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انقضت خمسون عاماً على ذلك ، وكـان العام الثـالث للهجرة عندما مرّ النبي (ص) بمدفن أمه في (الأبواء)، فترجل واتجه الى ناحيته دون أن يكلم أحداً ، فتبعه بعضهم حتى وصل الى مكان بعينه فجلس يقرأ الدعاء والفاتحة ، وغاص في تفكير عميق محدقاً بنظره الى نقطة معينة ، ثم انحدرت دموعه الكريمة على خديه وهو ما يزال يقرأ . فسئل: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال : ها هنا قبر أمي حيث دفنتها قبل خمسين سنة .

أما عبد المطلب فقد أصبح محمد ـ بعد موت أمه ـ شغله الشاغل ، وخاصة بعد وفاة عبدالله ، وكان يقـول لأبنائـه : إن محمداً يختلف عن غيره اختلافاً كبيـراً ، وإن له لمستقبـلاً لا تعلمونه . وقبيل موته أحضر ولده الأكبر أبا طالب ، الذي كانت له مكانـة مرمـوقة في مكـه ، وخاطبـه قائـلاً : إنني لا أخشى الموت ، إلا أنني قلق على أمر واحد ، وهو مصير هذا الطفل ، فلمن أعهد به ؟أتتقبله أنت وتكفله عني ؟ فأجابه بالإيجاب وتعهد له بذلك ، ووفي بوعده . ومنذ ذلك اليوم أصبح أبو طالب ، ـ والد علي ـ الكفيل بتربية محمد وتنشئته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسفار محمد (ص)

لقد قام رسول الله (ص) بسفرتين فقط الى خارج الحجاز ، وكلاهما كانتا قبل أن يبعث رسولاً ، وكانتا الى الشام . كانت الأولى وهو في الثانية عشرة من عمره مع عمه أبي طالب ، وكانت الثانية وهو في الخامسة والعشرين في رحلة يقوم فيها على تجارة أرملة اسمها خديجة ، تكبره بخمس عشرة سنة ، تزوجها فيما بعد .

أمّا في داخل الحجاز ونجد فقد سافر النبي (ص) قبل البعثة أيضاً ، منها سفرته الى الطائف ، والى خيبر التي تبعد ستين فرسخاً الى الشمال من مكة ، والى تبوك القريبة من الحدود السورية وتبعد حوالي مائة فرسخ عن المدينة .

أما بعد البعثة فلم يخرج من جزيرة العرب أبداً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعماله

ما هو الشغل الذي كان يشتغل به الرسول الكريم ؟

إننا لا نعرف له شغلاً غير الرعي والتجارة . كثير من الأنبياء كانوا يقومون برعي الأغنام قبل أن يبعثوا لحمل الرسالة (ترى ما السر الإلهي في ذلك ؟) . فكما أن موسى (ع) كان يقوم بأعمال الرعي ، كذلك فعل نبينا (ص) بما لا شك فيه . فقد كان يخرج بالغنم الى حيث ترعى في الصحراء ، ثم يعود بها مساء .

وقد إشتغل بالتجارة أيضاً . على الرغم من أن سفرته التجارية كانت الأولى من نوعها (لأن سابقتها كانت وهو في الثانية عشرة من عمره) إلا أنه قام بها بمهارة فائقة أثارت إعجاب الجميع .

ما هي سوابق النبي الكريم ؟ لقد كان تاريخ حياة النبي (ص) تاريخاً واضحاً مشهوداً ، بخلاف جميع الأنبياء الآخرين . وإن من سوابقه البارزة المعروفة أنه كان أمياً لم يدخل مدرسة ولم يعرف القراءة والكتابة . وهذا ما يشير إليه القرآن أيضاً لقد كان أكثر الناس يومئذ أميين .

ومن مميزاته الخاصة الأخرى أنه خلال سنواته الأربعين قبل البعثة لم يسجد لصنمٍ قط ، على الرغم من أنه كان يعيش في ذلك المحيط الذي لم يكن يعبد فيه غير الأصنام . لقد كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هناك آخرون ـ أيضاً ـ ممن تحرزوا من السجود للأصنام ، وهم الأحناف . إلا أن هؤلاء تنبهوا الى خطئهم ذاك في الكبر ، لا منذ الصغر ، وقد اختار بعضهم المسيحية . أما النبي (ص) فلم يسجد لصنم قط منذ طفولته حتى النهاية . إذ لو كان قد أظهر أقل خضوع لأي صنم قبل بعثته ، لعيروه بذلك بعد اضطلاعه بمحاربة عبادة الأصنام . كما أنه لم يشترك خلال صباه وشبابه في أي لهو أو لعب مما كانت تعج به مكة يومذاك .

فقد كانت لمكة ميزتان :

الأولى : إنها كانت مركز الأصنام التي يعبدها العرب .

والثانية : إنها كانت مركزاً تجارياً رئيسياً يقطنها سراة القوم وأثرياء العرب وأصحاب العبيد والإماء والجواري .

ولذلك كانت مكة مركز اللهو واللعب وشرب الخمر وحفلات الرقص والغناء ، بحيث أن النخاسين كانوا يتحملون مشاق السفر الى بلاد الروم ـ بلاد الشام ـ لجلب الجواري البيض الحسان لتشغيلهن في بيوت الدعارة ، الأمر الذي نهى عنه القرآن أشد النهي بقوله :

﴿وَلاتُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلى الْبِغاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾[٦٠] .

---

(٦٠) سورة النور ، الآية ٣٣ .

فقد كن يردن الحفاظ على عفافهن وشرفهن ، ولكنهم كانوا يجبرونهن على تعاطي الفحشاء والزنا لقاء أجور يتقاضونها عن ذلك .

كانت بيوت مكة منقسمة الى بيوت شمال المدينة وبيوت الجنوب . وكان سراة الناس يسكنون الشمال ، وغيرهم يسكنون الجنوب .

بيوت الشمال كانت دائماً مشغولة بالطرب والرقص والغناء وشرب الخمر . إلا أن نبي الإسلام لم يحضر قط في حياته أياً من أمثال هذه المجالس ، فلم يتلوث بأدرانها .

عرف محمد ـ قبل الرسالة ـ بالصدق والأمانة والعفة والعقل ، فلقبوه بمحمد الأمين ، وكانوا يثقون بصدقه وأمانته كل الثقة ، كما كانوا يسترشدون به في كثير من أمورهم . فكان الصدق والأمانة والحكمة من الصفات التي اشتهر بها محمد قبل البعثة ، بحيث أنه عندما أراد إبلاغهم رسالة الله ، سألهم أولاً إن كانوا يعهدون فيه مقالة كذب ، فقالوا جميعاً : كلا أبداً ، فأنت الصادق الأمين .

إن مما يدل على حكمة النبي (ص) ، أنه عندما هدمت جدران الكعبة لإعادة بناءها رفع الحجر الأسود من مكانه ايضاً وعندما أرادوا إعادته الى مكانه ، اختلفت القبائل فيما بينها حول من يرفع الحجر الى مكانه ، وكاد الأمر أن يصل الى الإقتتال ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فجاء محمد وفض النزاع ، كما هو معروف في القصة المشهورة .

والظاهرة الأخرى التي كانت قد حدثت له قبل البعثة هي ظاهرة الإحساس بالتأييدات الإلهية . وقد أشار النبي (ص) بعد البعثة الى تلك الظواهر التي كانت تحدث له في صباه ، وكان يقول . إنه لم يكن يشترك معهم ، وكنت أحياناً أحس كأن قوة غيبية تعينني . يقول : كنت في حوالي السابعة ، يوم كان عبدالله بن جدعان ـ وهو أحد، أشراف مكة ـ يبني بناية ، وكان الصبية في مكة يساعدونه على ذلك بنقل الحجر من مكان الى مكان ، فكنت أذهب معهم وأفعل فعلهم . كان الفتية يملأون أذيال ثيابهم بالحجر ويرفعونها فتنكشف عوراتهم . وعندما حاولت أن أملأ حجري وأرفع أذيال ثوبي أحسست كأن يداً تفلت الأذيال من يدي وترمي الحجر على الأرض ، فشعرت أنني ينبغي علي ألا أفعل ذلك ، مع أني لم أكن قد تجاوزت السابعة .

وقد جاء عن الإمام الباقر (ع) وفي نهج البلاغة ما يؤيد هذا :

« ولقد قرن الله به منذ كان يتيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومكارم أخلاق العالم . »

ويؤكد هذا الإمام الباقر (ع) بقوله : إنه كان بعض الملائك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موكلين به منذ طفولته . ويقول النبي (ص) : كنت أحياناً أسمع سلاماً . كأن أحدهم يقول لي : السلام عليك يا محمد . فكنت ألتفت فلا أرى أحداً . وأحياناً كنت أقول : لعل هذه الصخرة أو هذه الشجرة هي التي سلمت عليّ . ثم بعد ذلك علمت أنهم كانوا من الملائكة .

ومن جملة حوادث ما قبل الرسالة ، حالات الإرهاص ، بـإصطلاح المتكلمين ، ومنهـا حالـة سماعـه المـلائكـة وهم يسلمون عليه . . كان النبي يرى أحلاماً عجيبة في منامه ، وعلى الأخص عند اقتراب موعد بعثته . كان الحلم « يأتي مثل فلق الصبح » وضوحـاً . وذلك لأن بعض الأحـلام كان ضـرباً من الوحي والإلهام . طبعاً ليست كل الأحلام كذلك ، لا الأحلام التي تستثيـرها معـدة الإنسـان ، ولا تلك النـاشئـة عن العقـد والخيالات والأوهام والتوهم .

إن الفترة التي قضاها النبي قبل بعثته كانت فترة إعداد لتلقي الوحي والإلهام الإلّهي فكان يرى أحلاماً جليـة واضحة وكـأنه يراها في فلق الصبح بخلاف بعض الأحلام التي يراهـا المرء رؤية غامضة مشوشة ، أو قد تكون واضحة ولكن تعبيرها لا يكون صـادقاً ، هنـاك أحلام جليـة وواضحة وليس فيهـا تشوش ولا إرتباك ويكون تعبيرها واضحاً وجلياً أيضاً .

من حوادث ما قبل بعثة الرسول هو ما قلناه عن الرحلتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللتين قام بها الى خارج الحجاز قبل أن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

كان النبي فقيراً لا يملك شيئاً ، أي إنه لم يكن من أصحاب رؤوس الأموال كان يتيماً فقيراً وحيداً . بل كان يتيم الأبوين . وكان يشتغل ليعيش . وكان وحيداً ، وهي الوحدة الروحية ، التي كان قد وصل اليها عل أثر تفكره وبلوغه الى أفق فكري لم يعد يأتلف مع الأفق الفكري لدى الآخرين المحيطين به ، فكان أشبه بالغريب بينهم . . إن الوحدة الروحية أفظع بكثير من الوحدة الجسمية . وهذا المثل الذي أضربه قد يقصر عن الوصول الى المعنى المقصود ، ولكنه يوضح الحالة . . تصور رجلاً عالماً فاضلاً شديد الإيمان بين أناس جهلاء لا إيمان لهم ، حتى على فرض أن أولئك هم أبواه وإخوته وأقرباؤه ومعارفه . . إن رجلاً كهذا يحس بالوحدة ، أي إن الرابطة الجسمية لا تستطيع أن تقرب بعضهم من بعض . فهذا يعيش في دنيا روحية ، وأولئك يعيشون في دنيا أخرى . ولقد قيل : إذا كان الجاهل يرهب العالم ، فالعالم ينفر من الجاهل أضعافاً .

لذلك فقد كان النبي (ص) وحيداً بين قومه ، إذ لم يكن بينهم من يصح أن يكون له رفيق فكر . وفي الثلاثين من عمره ، بعد أن يتزوج خديجة ويؤلف معها عائلة ، يأخذ طفلاً في الثانية من عمره من أبيه ، وهو علي بن أبي طالب ، ويأتي به الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيتـه . . وحتى بعثته ، التي تـزيل عنـه الوحـدة بـالإستئنـاس بالوحي ، لا يكون له أنيس سوى هذا الطفل الذي يبلغ عندئذ حوالي الثانية عشرة من عمره . أي إن من بين أهل مكة جميعاً لم يكن أليق من علي بن أبي طالب بأن يكون رفيقاً روحياً له . يقول علي : إن النبي عندما كان يخرج الى الصحراء كان يركبني على كتفه ويأخذني معه .

في الخامسة والعشرين تخطبه خديجة لنفسها بطريق غير مباشر . . بديهي أن الرجل هو الذي يخطب ، ولكن هذه المرأة التي شغفت بمكارم هذا الفتى ، تحرك عليه من يحرضه على طلب يدها . فيقول لهم : أنا فقير لا أملك شيئاً . فيقال له : ألاّ يشغل باله بهذه الأمور ، ويفهمونه بأن خديجة التي طلب يدها أشراف مكة وكبارها فرفضتهم تريـده هو . وتتم الخـطبة ويتم الزواج .

من العجيب أنـه بعـد أن يصبـح زوجـاً لامـرأة تشتغـل بالتجارة ، يترك هو التجارة ، حتى تبدأ مرحلة الإنزواء والإختلاء بالنفس ، مرحلة التحنف والتعبـد . وقبل بلوغ هـذه المرحلة يزداد شعوراً بالوحدة وباتساع الفاصل بينه وبين قومه ، ويحس أن مكة ومجتمع مكة يأكلان في روحه ، فينطلق مبتعداً عن مكة ومجتمعها الى حيث الجبال المحيطة بمكة ، ويغرق في التفكير والتأمل ، والله وحده العالم يومئذ بالحلات التي يمر بها . وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الأوقات لا يكون معه أحد من البشر سوى ذاك الطفل ، عليّ .

وفي شهر رمضان يختار أحد الجبال التي تقع في الشمال الشرقي من مكة ، وهو جبل منفصل عن سلسلة جبال مكة . مخروطي الشكل ، كان اسمه (جبل حراء) ، وهو اليوم (جبل النور) فيتخذ منه مكاناً يختلي فيه بنفسه . ولعل الكثيرين منكم ممن تشرف بحج بيت الله قد تشرف أيضاً بزيارة جبل حراء وغار حراء . لقد وفقني الله لهذا الشرف مرتين ، ومن أمنياتي أن يتكرر لي هذا التوفيق مراراً عديدة . . إن الوصول من سفح الجبل الى قمته يستغرق ما لا يقل عن الساعة للإنسان العادي ، ويستغرق النزول ثلاثة أرباع الساعة .

عند حلول شهر رمضان يترك محمد مكة ، ويبتعد حتى عن خديجة ، ويتزود بشيء من الماء والخبز ويتوجه الى غار حراء . ويبدو أن خديجة كانت ترسل في كل بضعة أيام من يأخذ له بعض الماء والخبز . يقضي الشهر كله وحيداً في خلوته ، إلا عندما كان يحضر علي أيضاً . ولعله كان دائماً موجوداً معه ، ولكني لست متأكداً من ذلك . غير أن الذي لا شك فيه أنه كان معه يوم نزول الوحي عليه ، إذ يقول علي (ع) : « ولقد جاورت رسول الله (ص) بحراء حين نزول الوحي » .

لم يكن يغادر مكانه في الجبل ، حيث كان يعبد ربه . أما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف كان يفكر وكيف كان تعشقه الله ، وما هي العوالم التي كان يطويها هناك ؟ فتلك أمور لا نستطيع تصورها . وعلي (ع) طفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره يوم ينزل الوحي على النبي (ص) الذي يطوي عالماً آخر طياً . ولو كان آلاف من أمثالنا هناك ، لما أحسوا بشيء غريب يجري حولهم . ولكن علي أحس بكثير من الإختلافات والعوالم التي كان الرسول يمر بها ، فهو يقول : « **لقد سمعت رنة الشيطان حين نزول الوحي** » وكالتلميذ الذي يقص على استاذه حالاته الروحية قص عليه ما سمع عند نزول الوحي ، فقال : « **إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى ولكنك لست بنبي** » .

كان هذا بياناً موجزاً لحياة النبي قبل البعثة مما رأيت ضرورة في تبيانه .

هنا أورد لكم بعضاً من أقوال رسول الله (ص) لأنها بذاتها معجزة (بعد كلام الله طبعاً) وعلى الأخص إذا أخذنا سيرة حياته التي ذكرتها بنظر الإعتبار . فهو الطفل الذي شاء القدر أن يجعله يتيم الأب وهو في بطن أمه ، ويتيم الأم وهو في الخامسة ، ويقضي فترة الرضاعة في البادية ، وترعرع في مكة . . أرض الأمية والجهل ، فلم ير مربياً ولا معلماً . . سفراته محدودة لم تتجاوز سفرتين قصيرتين الى خارج جزيرة العرب . لم يلتق طيلة حياته بفيلسوف ولا حكيم ولا عالم ومع ذلك فالقرآن يجري على لسانه وينزل على قلبه . ثم هو نفسه يتفوه بأقوال تكون على مبلغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الحكمة لا تبلغ شأوها أقوال أحكم الحكماء .

أما كوننا ـ نحن المسلمين ليست لنا اللياقة الكافية لكي نجمع تلك الأقوال ونضعها في متناول النشر والتشريح ، فذلك أمر آخر . . !

أقوال النبي (ص) واردة في مظانّ كثيرة . وإني أنقل على وجه الخصوص من أقدم المصادر . . إن من أقدم المصادر الموجودة . أو الموجود عندي على الأقل ، كتاب « البيان والتبيين) للجاحظ ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث . أي إن هذه الأقوال قد دونت في النصف الأول من القرن الثالث تقريباً . و (البيان والتبيين) يعتبر عند الغربيين والمستشرقين من الكتب المهمة . إنها ليست من الأقوال التي يمكن أن يقال أنها قد نقلت فيما بعد . . كلا ، بل هي أقوال ظهرت بشكل كتاب في القرن الثالث ، وهي بالطبع كانت موجودة ـ أيضاً ـ قبل القرن الثالث ، لأن الجاحظ ينقلها بأسانيدها .

ففيما يتعلق بالمسؤولية الإجتماعية يضرب النبي العظيم (ص) مثلاً ، فيقول : ركب جماعة البحر يمخرون عبابه الواسع ، فرأوا رجلاً ينقر السفينة بفأسه فلم ينبر أحد منهم يمسك يد الرجل ليمنعه عن فعلته ، فركبهم ماء البحر وغرقوا جميعاً . كذلك هو الفساد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذا رجل في المجتمع يرتكب المنكرات وينشر الفساد ، فينظر إليه أحدهم فيقول : مالي وله . ويقول آخر : لن يدفنوني معه في قبر واحد . فلا يرون أن مثل المجتمع مثل السفينة في البحر ، إذا ركبها ماء البحر ، حتى لو كان بفعل واحد من الركاب ، لا كلهم ، فإن الغرق لا يصيب ذلك الفرد وحده ، بل يشملهم جميعاً في طياته .

وفيما يتعلق بالمساواة بين أفراد البشر ، أثمة كلام أرفع من هذا ؟ ! : « **الناس كأسنان المشط** » ! فلتتصور المشط يومذاك ، فكل سن من أسنانه شبيهة بالأخرى ـ من جميع الوجوه ـ وكلهن متساويات . أهناك ، بعد أربعة عشر قرناً من الزمان ، من قال مثل هذه المقولة في المساواة في هذا العصر ؟ !

وفي حجة الوداع ينادي : « **أَيُّها النّاسُ . إنَّ رَبَّكُمْ واحِدٌ ، وَإنَّ أباكُمْ واحِدٌ ، كُلُّكُمْ لِآدَمُ وآدم مِنْ تُرابٍ . لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلى عَجَمِيٍّ إلاّ بِالتَّقْوى . .** » .

فلا مكان لمن يفخر بعنصره ، أو بمركزه ، أو بقوميته . . جميع الناس من تراب ، ولا فضل لتراب على تراب . إنما يكون الفضل للميزات المعنوية والروحية ـ التقوى . إن معيار الفضل هو التقوى ليس غير .

وهذا حديث نبوي أنقله لكم من (الكافي) . يقول :

« **ثَلاثٌ لا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ : إخْلاصُ**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْعَمَلِ لله وَالنَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمينَ وَاللُّزُومُ لِجَماعَتِهِمْ » وكثيراً ما طرقت أسماعنا أقوال الرسول :

« كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكُم مسؤولٌ عنْ رَعيَّتِهِ » « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »

« لَنْ تُقَدَّس أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيها حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ » .

هذه هي سيرته وهذا هو فعلها وأثرها . يقول بعض أصحابه : كنا معه في إحدى الرحلات ، فنزلنا لتهيئة الطعام . فتبرع أحدنا بذبح شاة ، وقال آخر : إنه يسلخها . وقال ثالث : إنه يطبخها ، وهكذا . . وقال النبي (ص) : أنا أجمع الحطب . فيعرض عليه أصحابه أنهم يكفونه ذاك العناء ، فيجيبهم : أعلم هذا منكم ، غير « إنَّ الله يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أنْ يَراهُ مُتَمَيِّزاً بَيْنَ أَصْحَابِهِ» [٦١] فما أعمق دلالة هذه الحكاية! إن تفسير هذه القصة بلغة العصر - هو أنها تشيد بالإعتماد على النفس في قبال الإعتماد على الآخرين - تفسير صحيح . . بالطبع لا في قبال الإعتماد على الله . إن الإعتماد على النفس أمر صحيح تماماً ، وهو يعني عدم الإعتماد على الآخرين ، بل قيام المرء بإنجاز ما يستطيع بنفسه بغير طلب المساعدة من أحد

(٦١) هذه الحكاية واردة في كتب الشيعة ، والمرحوم الحاج شيخ عباس القمي (رضوان الله عليه) يذكرها في عدد من كتبه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

. فما أرفع هذه التربية ! وما يعنيه قوله : ﴿بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ﴾ .

بفضل أصحابه أيضاً (وهذا أيضاً مما يذكره المرحوم الشيخ عباس القمي ، وآخرون) : نزلنا منزلاً في أحد رحلاتنا ، وتفرق جمعنا يتهيأون للوضوء والصلاة . ولاحظنا أن رسـول الله عند ترجله أخذ يسير باتجاه معين ، ولكنه ما إن ابتعد مسـافة حتى رجع . فيظن الأصحاب أنه صرف نظره عن المكوث في ذلك المنزل ، فانتظروا أن يصدر أمره بالرحيل . ولكن النبي (ص) لا يقول شيئاً الى أن يصل إلى راحلته فيفك حملها وينـزله عنهـا ويعقلها ، ثم يعود ليستـأنف طريقـه ذاك . فعجب الأصحاب لفعلته ، وقالوا : لو نادى علينا من مكـانه لقمنـا عنه بـذلك . وسألوه عما منعه من أن يطلب من أحدهم أن يعقل له بعيره ، إذ أن قيامه بذلك كان مدعاة لفخره . انظروا كيف يكون الجواب في محله وذا معنى رفيع ، قال :

« لا يَسْتَعِنْ أَحَـدُكُمْ بِغَيْره وَلَـوْ بِقَضْمَةٍ مِنْ سُـواكٍ . »فما تستـطيع أن تعمله بنفسـك اعمله بنفسك . إنـه لا يقول : لا تستعن بأحد حتى فيما لا تقدر عليـه بنفسك . فهـاهنا يكـون موضع الإستعانة بالآخرين .

لو أن أحداً وفقه الله لجمع كلام رسول الله من بطون الكتب المعتبرة ، وكذلك وفقه لكتابة سيرة الرسـول الكريـم بـأسلوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحليلي مستنداً إلى المصادر الموثوق بها ، عندئذ سيتضح أن العالم لم يشهد شخصية كشخصية رسول الله محمد (ص) . . إن كل وجود النبي الكريم اعجاز ، لا قرآنه فحسب .

وسوف أختم كلمتي باسمك العظيم الأعظم يا الله . اللهم نور قلوبنا بنور الإيمان .

اللهم الق بأنوار معرفتك ومحبتك في قلوبنا . واجعلنا ممن يعرفون ذاتك المقدسة .

اللهم الق في قلوبنا نور محبة رسولك العظيم ، وعرفنا سيرته وسيرة الأئمة الطاهرين .

اللهم اجعلنا ممن يقدرون الإسلام والقرآن والعلماء الأعلام .

اللهم اشمل أمواتنا بعنايتك ورحمتك .

اللهم عجل فرج صاحب الزمان .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤسسة البعثة

مؤسسة ثقافية تعنى بشؤون التأليف والتحقيق والترجمة والطباعة والنشر ، بما يلبي حاجة القارىء المسلم أين ما وجد ، لذا تنوعت منشوراتها لتشمل لغات عدة ، منها : الانكليزية ، الفرنسية ، الأوردية ، الكردية ، وغيرها ،

ومستعدة « مؤسسة البعثة ـ بيروت » بتأمين طلبات دور النشر من احتياجاتهم للكتب المطبوعة في لبنان وخارجها ومستعدة أيضاً للتعاون الفعال مع كافة الفعاليات الثقافية في العالم العربي والإسلامي ، إذ هي لبنة من تلكم اللبنات التي يعول عليها المشاركة الجادة في تطوير حركة الكتاب ، وصولاً إلى بناء فكري متطور يبتني على المنهج الثقافي السليم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صدر من منشوراتنا :

١ ـ فاطمة الزهراء (ع) المرأة النموذجية في الإسلام .	إبراهيم الأميني
٢ ـ جولة في سيرة الأئمة (ع)	مرتضى مطهري
٣ ـ الفطـرة	مرتضى مطهري
٤ ـ الإمام علي (ع) في قوتيه الجاذبة والدافعة .	مرتضى مطهري
٥ ـ السيرة النبويـة .	مرتضى مطهري
٦ ـ الإنسان الكامـل .	مرتضى مطهري
٧ ـ آية الكرسي نداء التوحيد السماوي	محمد تقي الفلسفي

وسيصدر قريباً :

ـ مؤلفات الخطيب . محمد تقي الفلسفي .

ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل . للأستاذ ناصر مكارم الشيرازي ، في عشرين جزءاً .

ـ موسوعة مستدركات سفينة البحار .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)